رواية

العناكب

عبد الحميد وشفون

العنـــــــــاكب

عبد الحميد وشفون

روايـــــــة

الكتـــــــــــاب: العناكب

تـــــــــــأليف: عبد الحميد وشفون

النوعيـــــــــــة: رواية

صدر عن كتوباتي: 2024م

التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الإهـداء:

إلى كل من يحب ما أكتب...

1

منذ الصباح الباكر، منذ صباح اليوم، منذ صباح الأمس، منذ صباحات كثيرة لم أعد أذكرها، أجل... منذ أعوام خلت بأيامها لم يحدث معي شيء جيد قط، حتى بت لا أعي ما هي الأشياء الجيدة، أرجوكم اعذروني لأني بدأت قصتي بمثل هذه الكلمات الكئيبة، لكنني ما كنت لأختلق الكذبات أبدا، أنا لا أكذب في العادة، ولسوف أسرد حكايتي بصدق بالغ، هذه الحكاية التي قد لا تهم أحدا، هي قطعة صغيرة جدا من خيط الحياة الممتد في عالمنا، ربما هي مثل ذرة غبار وسط مجرة، لكنها حكايتي، وهي كل ما أملك، و إذا كان المرء لا يملك أكثر من ذرة غبار في جيبه فذلك حتما هو أغلى ما يملك.

بعض الناس يمتلكون أشياء هي من البساطة بحيث لم يسمع الآخرون بها، لكنها بالنسبة إليهم تكون كل ما رأوه في دنياهم وفي شريط حياتهم وفي وقتهم القصير هذا، ففي النهاية هم يشكلون مع أشيائهم الصغيرة تلك صفيرا ينقله الريح، فأحدهما حتما يعبث بالآخر.

تُظلم هذه المدينة ببطء شديد جدا، ربما لأنها نبتت في أرض بطحاء لا يحدها جبل، ولذلك فالشمس لها متسع، فتراها تميل وتتثاءب، وحين توشك

أن تضع رأسها على الوسادة فإنها تقفل فمها مثل طفلة صغيرة، ولا يكون بعد ذلك إلا صمت يخرج بقدميه في الشارع. إنّ الناس هنا مؤدبون جدا، ولا يحبون إزعاج الشمس في نومها، أعرفهم منذ تكونت عيناي، ربما أيضا منذ بكيت أول مرة، وربما قبل ذلك، حين التقطت أذني أولى الكلمات البذيئة، كانت تلك الممرضة التي أشرفت على إخراجي بيديها الصلبتين وهي تُسمع أمي وابلا من الشتائم لأنها استسلمت لأبي في ليلة دافئة، حينها استطعت أن آخذ صورة عن أي عالم خرجت إليه... ولذلك رحت أصرخ بلا هوادة، لقد اعترضت على وجودي هنا من أول فرصة، وأنّبت أمي حتى قبل آن أراها، ظننتها تكفلت بكل شيء يخص مجيئي، لكن حينما فتحت عيناي ورأيتها، قلت في نفسي إن هذه العين التي تراقبني بهذه الطريقة لابد من أنها سوف تخفف عني وحشتي مهما بلغت.

رغم ذلك قضيت عدة أشهر لأعترف لها بأني ابنها، حينما قلت ماما أول مرة بكت أمي بشدة، وردت على كلامي قائلة، إنك الآن جعلت عالمي أقل وحشة.

2

دخلت محل بيع الحيوانات منذ ساعة، نظرت في كل طائر، وسرحت في كل سمكة، وحينما جاء البائع ليسألني عن سبب مجيئي إليه قلت وأنا لا أرفع وجهي عن قطة بديعة المنظر :

- " هل لديك عناكب؟."

وذهب البائع نحو رف مرتفع ثم جاء خلف مكتبه وهو يحمل علبة كرتون صغيرة بين يديه وطلب مني تفقدها، ونظرت إليها بعين ضيقة :

- " ذكر وأنثى ". !!

- " ذكر وأنثى..."

فقلت بحماسة:

- "أريد لتلك العلبة الصغيرة أن تصبحي ملكي، لي أنا وحدي، ولهذه النقود التي معي أن تصبح ملكك، ملكك أنت وحدك فلا تعود لي... أيتها الساعة المعلقة على الجدار هل تمانعين في ذلك، إنها لا تمانع، فهل للأمر أن يحدث، أن يباشر في الحدوث الآن ومباشرة، يا سيدي؟"

وسكت عقل البائع عن التفكير بعدها، ووجدته يرمقني بنظرة جاحدة، ثم رفع العلبة وناولني إياها، بهدوء بالغ، وتناول ورقة النقد من يدي، وهكذا تمت الصفقة، ولما كنت واحدا من أولئك النّاس اللذين يفرحون بأشيائهم الصغيرة مثلما يفرحون بأشيائهم الكبيرة أيضا، فإنني وقفت أطالع العلبة بعين متحجرة بينا يضحك داخلي، ها أنا قد اشتريت حبل عنقي.

لأكون صريحا فإنني أحيانا أتصرف كالقرد حينما أحصل على ما أريده ـكقرد له لسان يعمل ـ وكنت قد وقفت خارج المحل بعد ذلك أتأمل العلبة وأقلبها بين يداي بنهم، ثم تذكرت ذلك البائع اللئيم الذي أعطيته مالي، كل مالي، إنه لم يقل شكرا وهو يأخذ مني نقودي الأخيرة، كان خسيسا مثل آلة عد نقود قديمة، أو مثلي لو أنني كنت مكانه.

أنا كلما رأيت شكلا مكعبا مغلقا تذكرت بيتي الذي يتكون من غرفة ونصف غرفة... تسمعونني جيدا، لم أقل اثنتين ولم أقل ثلاثة، إن تلك القصور الكبيرة لا تناسب رجلا مثلي، أتذكر مرة حينما قالت لي زوجتي بأنها لم تعد تتحمل، وأنها أصبحت ترى في نومها أحلاما مزعجة، وكثيرا ما باتت تتكرر، لكنها صارحتني في النهاية وأخبرتني أنها بدأت تشعر وكأننا مجرد عودي ثقاب يعيشان بداخل علبة مغلقة، كانت قد أخبرتني بهذا قبل ثلاثين

ثانية فقط من مغادرتها للمنزل، وكانت تحمل حقائبها الخفيفة الوزن تحت ذراعيها بينا تخبرني بهذا، ته... يا لي من كاذب سيء، لكن لو أنه كانت لي زوجة، فلابد أن هذا ما كانت سوف تقوله، نعم... كنا سنتطلق، لأنني كنت سأظلمها كما لم تظلم امرأة، يا لها من أنثى مسكينة هذه المرأة التي كانت ستكون زوجتي، لا لشيء إلا لأنها كانت سترحل بحقائب فارغة، وكل شيء سيكون قبل الحقائب الفارغة فلابد أن يكون قاسيا جدا على امرأة، هذا واضح، و إلا فإنها كانت سترحل بحقائب ممتلئة أو قد لا ترحل أبدا، أنا آسف يا زوجتي التي لم تكن، لأنني لم أمنحك ما تريدينه، حتى في مخيلتي، فقير حتى في مخيلتي، تعرفون لماذا؟، هذا لأنني لم أستطع أن أتخيلها إلا وهي تلبس معطفا صوفيا خفيف الوزن بلون أسود حائل، في عز الشتاء وهي تقف عند النافذة تنتظر عودتي على الساعة السادسة مساءا، ولابد أن هذا المعطف سيكون غير مكتمل إذ سينقصه زران في الأعلى، حيث تفاحتاها، مع تنورة حمراء حائل لونها، وجوربين تدفئ بهما قدميها الصغيرتين الجميلتين جدا.

إنني لا أجرؤ على تخيل شيء أفضل من هذا، ولو كان أغلى منه ولو بدينار واحد، فسامحيني أيتها المرأة التي لم تكن، إنني أخطفك من الماضي

وأخلطك بذكرياتي وحاضري ومستقبلي دون إذنك، اعذريني، فهذا كل ما استطعته.

في الطريق شردت في العلبة حتى كدت أصدم رأسي بعمود الإنارة، يا لها من سرعة خارقة تلك التي تحصلت عليها بها، ذكرتني بمدى السرعة الهائلة التي أصبحت بها فقيرا، آخر ورقة نقدية قد تخليت عليها في لحظة واحدة من أجل علبة كرتون صغيرة، في ثلث ثانية، كانت لي، ثم لم تعد... أظن أنه يوجد بين الأمرين مسافة غباء، ذلك أن الإنسان حينما يتخلى عن ثروته من أجل علبة صغيرة في ثلث ثانية، في ثلث ثانية فقط، فإنه لابد أن يكون غبيا في تلك اللحظة، لأنه أمر لا يمد للذكاء بصلة، ولأنه ينبغي على المرء أن يكون لديه بعض النقود طوال الوقت، ورجل بلا نقود، لا يختلف كثيرا عن نقود بلا رجل، إنه لمحكوم عليهما بالبقاء لوحدهما طوال الوقت وألا يتذوقا الحياة أبدا.

رغم ذلك فأنا رجل أقتدي بنفسي، وأؤمن بأنني طالما أفعل هذا فسأكون بطريقة أو بأخرى على قيد الحياة، ما دمت لم أمت، وأما الآن فإني واقع في مشكلة عظيمة.

3

عدت إلى النّزل فارغ الجيب، عدت إلى الخم، إلى حيث يمكنني أن أتعرف على نفسي، ستة سلالم أصعدها حتى أصل إلى غرفتي، وقبل ذلك سيكون علي أن ألتقي بأكثر شخص أمقته في حياتي هذه، إنّه المالك، مالك النّزل، بعد أن لم يتعب في تحصيله أكثر من تعبه في تناول المفتاح من يد والده المقبور، هو السيد جلال، لا، لا... سأناديه كما يليق بشخصه، البخيل، هكذا سميته، رجل قصير القامة وبدين مثل خنزير بري يقف على قائمتيه الخلفيتين ويطل من خلف صخرة، وما أُشبهه بهذا الكائن المنبوذ إلا لقصر قامتهما، وتشابه طبائعهما، ولأن الشعر على رأس هذا يشبه الشعر على رأس ذاك، ثم إن عيناه الذابلتان تشبهان عينيه أيضا، وأنفه لا يفرق كثيرا عن أنفه، وكثيرا ما يرتدي ملابس فيها ورود كثيرة، ولذلك فلا أذكر عدد المرات التي رأيت فيها وجهه يتفق ولو قليلا مع ملابسه، كما أنه لا يمل من ارتداء صندل بلاستيكي في الحر والقطر، و إذا استمر في النظر إليك من مبعدة فتأكد بأنك ستتعرض لحادث، لا يهم إن كان في روحك أو في جسدك، لكن الحقيقة المؤكدة هي أنك ستتألم في ذات اليوم بطريقة أو بأخرى، إنه رجل حسود جدا،

يمكنه أن يحسدك على مشيتك، أو ضحكتك، أو كونك على قيد الحياة، تبقى الآن أن أتحدث عن نظارته الباهتة الزجاج التي يعلقها على صدره، والتي لا يستعملها إلا وقت الضرورة، أي فقط حين يعد نقوده، فإنه يعمل جاهدا ليوفر لنفسه كل الأسباب التي قد تحول دون وقوعه في الغلط.

قالت لي أمي ذات مرة إن الناس إذا كانوا في صفي فهذا جيد، و إذا لم يكونوا في صفي فذلك جيد أيضا، لم أفهمها حينها لكنني الآن متأكد بأنها كانت تقصد أناسا كهذا الرجل، لأن مثله لا يتوقفون عن استنساخ أنفسهم كل فترة، بحيث يبقون لأطول فترة ممكنة على خط الزمن، تماما مثل المطبات على طريق ضيق.

ذلك أن هذا الرجل إذا كان بجانبي فسيكون بمقدوري أن أتأخر في دفع ثمن إيجار الشقة، لبضع ساعات فقط، أما في حال كان ضدي فإنني لن أضطر للذهاب إليه بنفسي ودفع مبلغ إضافي لقاء التأخير الحاصل، لأنه سوف يأتي بنفسه بعد مرور ساعة واحدة، و إن الذهاب إلى هذا الرجل لفعل شيء كهذا لهو مذلة، مذلة قاسية، بل وبديعة بحيث أنك سترغب في أن تضع يديك حول عنقه فترفعه عن الأرض وتخنقه لدقيقة كاملة، قلت وأنا أدلف إلى السكن في خطوات متقاربة :

- " عمت مساءًا سيدي..."

فأجابني بصوت فظ كعادته، قال :

- " يتبقى ستة أيام فقط".

قالها وهو ينفض يديه اللتان لا تبقيان فارغتان أبدا أمام وجهه، وكأنه يستعد للهجوم عليّ في أي لحظة إن أنا قلت كلمة أخرى قبل أن يرى نقوده، و إنه أجابني هكذا إلا ليُذكّرني بموعد دفع إيجار الشقة، هو لا يغادر مكتبه قبل التاسعة ليلا، يا له من حقير صغير الحجم، نظرت إلى باب شقته، كان صوت البيانو يأتي خافتا، تركته يقلب صفحات جريدته فيما صعدت إلى غرفتي قبل أن تنفجر عيني من منظره.

عندما وقفت أمام باب الغرفة وأدخلت المفتاح في مكانه تذكرت شيئا فجأة، قلت في نفسي أنه لابد لي من أن أرجع نزولا نحو الأسفل، بما أنني نسيت شراء رغيف خبز أسكت به عصافير بطني، حسنا، من جهة أخرى يبدو الأمر وكأنني لم أنسى ذلك، بما أن جيبي كان يخلو من أي شيء ذا قيمة، بل تناسيت، لكن صعود كل تلك الأدراج لهو أمر مرهق فعلا، ويشعرك بالخواء وبأن بطنك بات يلحس نفسه من الداخل، ألم فضيع ذلك الذي شعرت به على عتبة باب الشقة، ولذلك قررت أن أتخلى عن فكرة النوم جائعا، ثم كانت

هنالك قطتي العزيز، وكنت قد تركتها منذ بضع ساعات، وحيدة وبلا طعام يشبعها، فماذا كان بإمكاني أن أطعمها إن أنا دخلت الغرفة حاملا بيدي علبة كرتون لا يمكن مضغها، إنني حينها سأموت من نظراتها المترجية.

4

إنها الثامنة ليلا، وهذه المدينة الفقيرة عادة ما تبدأ في إغلاق أبوابها في مثل هذا الوقت المبكر، لكنني عدت أدراجي نحو الأسفل مع ذلك، ولم أنظر نحو البخيل هذه المرة لأنه بالفعل... لا... لا، أقسمت على نفسي ألا أسأله أن يقرضني مالا، أقسمت ثلاث مرات كاملة بنفس واحد... وحين خرجت من المبنى كنت رجلا بلا دين، ما أجمل أن تسير على الرصيف دون أن يكون عليك دين من ذلك الرجل، حسنا، ماذا كانت تقتضي خطتي أن أفعل بعدها، أذكر أنني بحث عن خيط هنا أو هناك، ووجدته بسهولة، أخذته ودخلت زقاقا مظلما وملت إلى أقصى الركن ثم خرجت بعد دقيقة واحدة، ومشيت مسرعا نحو المخبزة، كان يخرج من شق بابها ضوء خافت، لقد كانت تغلق بابها، فرُحت أمشي مسرعا وكأن أحدهم يطاردني، فتحت الباب ووقفت أمام رجل رقيق العود يابس الوجه عديم الإحساس ووضعت حزام سروالي على اللوح الخشبي أمامه وقلت ناظرا في عينيه مباشرة، وكأنني على يقين من أني سأنجح :

- " أريد رغيف خبز مقابل هذا الحزام يا سيدي... لا تسئ فهمي فأنا لا أقصد من وضعه أمامك هكذا، وبهذه الطريقة الآلية أن أنقل إليك ملكيته بشكل كامل، حين جعلت للأمر صوتا، بل لآخذ اهتمامك فأنت كما رأيتك قد كنت منشغلا بعد النقود هناك حيث تقف الآن خلف الصندوق، تلك نقود كثيرة، هي أكثر من أن تتحملها عيني، لكنني مع ذلك أدعوا الله أن يبارك لك فيها، بما أنه جعلك تحصل عليها، فهل يفيدك الآن أن نشرع في هذه الصفقة، حتى يزيد وزنها، و إنني أقف الآن هنا راجيا أن نتفاهم مثل رجلان يتحدثان لغة واحدة.. بل أود أن أذهب لأبعد من الاعتماد عل ثقة رجل برجل، وسوف أجعل الحزام وديعة تضمن رجوعي إليك مرة أخرى وفي غضون أربع وعشرين ساعة لأعطيك مالك، أعني حق الرغيف الذي ربما ستحب أن تسمح لي بأن أغادر برفقته الآن لأسد به جوعي، ذلك أنك تعرف حالي، كما أعرف أنا طيبة قلبك..."

كان الرجل منشغلا في عد نقوده قبل دخولي عليه بهذه الطريقة، ولذلك فقد استمر في النظر إلي بوجه متجهم، ربما لعشر ثوانٍ كاملة، دون أن ترمش عيناه، أو يتنفس، آه كم كان الوقت يمر ثقيلا، فلقد رأيت نفسي في عينيه وأنا أخلد إلى النوم جائعا، وحيثما أتقلب على الفراش أشعر وكأن كرة معدنية

تتدحرج بداخلي وتضرب جدران بطني، ليتكم تعرفون كم أن الجوع مرعب، لا أقصد ذلك الجوع الذي تصحبه وجبة ساخنة بعد وقت قليل جدا، بل إنني أقصد ذلك الجوع الذي يبلغ طوله عشرين ساعة كاملة، إنه كالاختلاف الذي يكون بين أن يربطك ملك ظالم على خازوق بطول سنتمترين أو أن يربطك على آخر يكون بطول متر ونصف، هكذا تماما، إنني لا أتذكر متى كانت آخرة مرة تناولت فيها وجبة بالمعنى الحرفي للكلمة، حيث تجلس بألم الجوع وتقوم بألم الشبع، لا بأس، أجل، وليس ثمة أذى، فشيخ الجامع قال ذات مرة أن الفقراء يدخلون الجنة أيضا، وعزائي الوحيد أنني أصدقه في هذا بشكل مفرط.

حسنا، إن الطريقة التي ناولني بها ذلك الرجل رغيف الخبز اليابس، آخر رغيف تبقى، لهي طريقة بديعة ومبتكرة لجعل المرء يحزن، فحتى الآن لا زلت أتذكر كيف قام فحمل الرغيف وجاء به فوضعه أمامي وعاد إلى مكانه دون أن يفوه بشيء، وكأنه يقول لي، فقط خذ هذا الرغيف واتركني أعمل، اتركني أعد نقودي، وخذ ذلك الشيء معك، يا له من رجل واثق من نفسه، ظن نفسه غنيا عن حزامي، لم يعرف أبدا ما الذي تكبدته لقاء التنازل عنه، لم يعرف أبدا

كيف حصلت على الخيط الذي كنت أربط به سروالي بينا أُجري معه هذا الحديث المهم جدا، إنه لم يقابل الكثير من الرجال اللذين يأتون ليشتروا الخبز مقابل أحزمة سراويلهم، أو ربما لم يقابلهم أبدا، أنا متأكد من هذا، و إلا فلم يكن ليتصرف معي بتلك الطريقة المهينة.

خرجت من المحل مثلما دخلته، دون إذن مسبق، أردت أن أعود رأسا إلى النُّزل، لكن أغراني المقعد في ساحة المدينة، ولذلك ارتأيت أن أجلس عليه قليلا لأفكر، أتصور أنه ينبغي علي أن أعرج على أمر مهم هنا، أمر ربما تهمكم معرفته.

كنت أنا، السيد جواد كما أسمتني أمي... أعرف أنني لم يسبق لي أن أخبرتكم باسمي، لا، إنني لم أكن ناسيا بل تعمدت ألا أخبركم، وربما أخبركم لاحقا عن السبب، إن أنا وجدت سببا لذلك، إنني أنا، السيد جواد قد كنت رجلا محترما ذات يوم، في ما مضى، قبل الآن، في وقت سابق، كنت شخص فاعلا في المجتمع عكس ما أنا عليه الآن، لم أكن عالة على أي أحد، ولا حتى على زوجتي لو أنني كانت لي واحدة، لكنني الآن عالة على كل شيء أعرفه، خصوصا على نفسي، و إنني لأتفنن في أن أكون عالة على نفسي... يا رب، كلما شعرت بالجوع ووجدت صعوبة في إيجاد شيء أضعه في فمي،

تحدوني رغبة في أن أموت، أترون أنني لا أُمثّل، لا أكذب كثيرا، لا أحاول إخفاء وضعي عن الناس مخافة أن يحسدوني، وهذا ما يفعله جل الناس في هذه المدينة، إنني أسفل السلم، وأرى من موضعي هذا ـ لكوني أقف في أول درجة ـ أرى جميع الدرجات الممكنة في الأعلى، ذلك أن من يصعد سلما لابد أن ينظر أمامه، تماما لأعلى، لا للخلف أبدا، ولذلك أعرف ما قد يعنيه الناس بأن أمورهم أحيانا تصبح سيئة في آخر الشهر حينما تتأخر رواتبهم ليومين أو ثلاثة عن موعدها، إنني أرى الطبقات كلها، وأرى جميع خطواتهم.

أولئك الناس حتما لا يعرفون معنى أن يتأخر عنك الراتب لعشر سنوات كاملة، ربما هذا يشبه أن يُمنع عنك الهواء لخمسين ثانية، لن تموت لكنك ستختنق بشدة، وهم لا يفهمون أن الهواء لا يُمنع عنهم لأكثر من عشر ثوان فقط، وأنّى لهم هذا.

حينما انتهيت من التفكير كان علي أن أحمل أمتعتي وأعود فورا، لأنني عادة عندما أبدأ في محادثة نفسي، و إذا كنت حزينا خاصة، و إذا كان الظلام يلف المنظر، فعادة ما أقضي الليل بطوله في الخارج دون أن أنتبه... حسنا، حملت العلبة ورغيف الخبز كل تحت إبطاي ومشيت عائدا إلى النّزل، عابرا بعض الأزقة المظلمة، وحين انتهيت إليه ورحت أدخله وجدت أن البخيل قد

أغلق مكتبه، كم هذا رائع، قلت في نفسي وأنا أتجاوز الطابق الأرضي صاعدا لأعلى، وقفت عند باب غرفتي ونظرت يمنة فرأيت نورا يتسلل من تحت باب غرفة جاري.

طرقت بابه مرتين فأتاني صوته من الداخل :

- " من هناك؟"

- " أنا يا سعيد... هل عندك حبة طماطم؟، أنا جارك جواد، اشتريت منك عنكبوتا قبل ساعة، هل بقي لديك طماطم؟"

- " ما الذي تريده؟."

- " عل لديك حبة طماطم؟."

- " لا..."

- " هيا بربك، لابد أنني في حاجة ماسة إليها، يمكنك أن تدرك هذا بسهولة، ألا يمكنك؟"

- " ليس عندي شيء مثل هذا، لكن الملح موجود بكثرة، هل تريد بعضا منه؟"

- " لا، شكرا..."

هكذا، بهذه الطريقة يتم رفضي كل مرة، بطرق مباشرة تخلو من نفاق أو كذب، و إذا كانت ثقتي بنفسي لم تهتز لهذا فلأنه لم يعد ثمة جدار بداخل صدري لم تصطدم به مثل رجل سكران ظل يترنح من جهة لأخرى ويضرب جبهته حتى سقط مغشيا ولم يقدر على الوقوف بعدها، إن كرامتي لابد تنام بداخل صدري في ركن قصي وهي تعانق ساقيها متعبة، لا تعي ما يحدث في الخارج، و إلا ما كنت لأعود كل مرة لأطلب أشياء لا يجوز ألا تكون موجودة في بيت رجل.

أغلقت باب غرفتي واستدرت لأجد القطة تجلس جلسة الأسد تطالعني بنظرة مترجية، بدت وكأنها سيخبرني بشيء فضيع جدا، وهكذا وضعت ما كنت أحمله على السرير ورحت أخرج قارورة الحليب من الثلاجة وأفرغت منها في قدر صغير وتركته على نار الفرن ليحمى، بينا ذهبت القطة عند صحنها وجعلت تراقبني في كل حركة، فيما وقفت أنا عند النافذة وأبعدت الستارة ورحت أطل نحو الخارج.

بعد دقيقتين بدأت بالمواء مجددا، وحينما استدرت نحو الفرن كان الحليب يفيض عليه من كل جانب، ركضت نحوه وأنقذت ما يمكن إنقاذه. وشكرتها بكلمات لم تفهمها.

كان العشاء عبارة عن خبز مفروم بداخل حليب دافئ، و إذا كان علي أن أشكر القطة على تنبيهي حقا فقد قسمت العشاء بالتساوي بيننا هذه المرة، ورحت أقرب الطعام إلى فمي بملعقة معدنية، شيئا فشيئا حتى فرغ الصحن تماما، كُلّ ذلك وأنا لا أزال واقفا عند النافذة، كم أحب تناول الطعام واقفا، ذلك يشعرني بأنني رجل مهم لا يمتلك وقتا، بالرغم من أنني أمتلك النهار بطوله، لكنها عادة، عادة سيئة تخصني.

عدت بعدها نحو الثلاجة فأخرجت فرشاة أسناني ودخلت الحمام ثم خرجت منه بعد دقيقة واحدة بفم متورم، يا له من أمر فضيع حينما لا تمتلك معجون أسنان، أليس كذلك؟، لكن هل سبق لكم وأن كنتم فقراء بحيث لم تتمكنوا من توفير المال الكافي لشراء علبة معجون أسنان مثلي؟، إنّ هذا البلد ليتفنن في إذلال الدواب التي تعيش عليه بشتى الطرق، حتى تلك التي لا تخطر على بال أحد، أتحسبون أن غسل المرء أسنانه بالماء وحده ليس ذُلا، بل هو الذل بعينه، بل أبلغ المهانة وأخلصها، صدقوني حينما أخبركم أن الأمر يشبه كثيرا أن يخرج المرء إلى الشارع مرتديا قميصا في الأعلى بينا يكون

جزءه السفلي عارٍ تماما، ليس لأنه يتصف بدماثة الأخلاق لكن لأنه لم يستطع الذهاب لأبعد من ذلك.

بعدما جففت فمي من الدم بدلت ملابسي وفتحت صنبور المدفئة وذهبت إلى السرير وغطيت ساقاي واتكأت على الوسادة وأخذت المذياع ووضعته بجانبي، ورحت أبحث عن شيء لأسمعه.

5

سيداتي وسادتي، لدي سرير واسع لشخصين غير أنه لم يسبق لي أن نمت ووجدت مشقة في التمرغ عليه بأي شكل أريده، بالمعنى الحرفي فإنه لم يسبق لي أن نمت عليه مع امرأة لديها لسان وساقين وكل تلك الأشياء الأخرى، لكنني بدل ذلك أتشاركه مع قطتي كل ليلة، وأجد في ذلك متعة عظيمة، لأنني أحب أصوات القطط حينما تكون نائمة، فأجسادها تظل تهتز أثناء التنفس وتصدر أصوات لطيفة تجعلني أنعس.

كنت أضع ذراعي الأيسر خلف رأسي بينا أبدل القنوات بيدي اليمنى، كانت ليلة الجمعة فيما أذكر، وعثرت على صوت عبد الحليم حافظ، الصوت الذي يجعلني أبدو كفيلسوف عظيم وأنا أسمعه، هي من المرات القليلة جدا التي تبث فيها الإذاعة الجزائرية أغاني لا يرغب المرء في انتهائها.

بعد نصف ساعة شعرت بنعاس قاتل، أحسست بأنّ عيناي تدمعان رملا، وكنت قد شردت في زوجتي بينا وضعت أصابع يدي على عجلة الصوت ورحت أديرها ببطء أبحث عن شيء آخر، كان هنالك تشويش في كل موضع،

وحينما كنت أجد شيئا كنت لا أقدر على التوقف عنده لأن الكلام الذي كان يقال فيه لم يكن يصلح للفقراء أمثالي بأي شكل ممكن، أنا يا سادة رجل أخاف الفقر، وأخافه بشتى الطرق، و إن كنت سأُجنّ في يوم من الأيام فلابد من أن سبب ذلك سوف يرجع إلى شيء مماثل، شيء لا يخرج من نطاق الجيب الخاوي، أعلم أنني تحدثت كثيرا عن فاقتي، وبشكل متعرج، وكنت قد أخبرتكم أنني لم أتزوج، والواقع أنني لم أقرب امرأة في حياتي، لكنني قبل لحظة فقط قلت أنني نظرت شاردا إلى زوجتي، حسنا، ففي كلتا الحالتين لم أكذب... زوجتي معلقة على الجدار الذي يقابلني، من ظهرها، بشكل يجعلها غير مرئية أبدا إذا ما جاءني زائر بشكل مفاجئ، ذلك أنها تصير خلف الباب مباشرة حينما تُفتح، وليس ذلك إلا لأتجنب السخرية، مع أنني سأجد صعوبة في تذكر أن شخصا ما قد مكث عندي لأكثر من عشرين ثانية، وعشرون ثانية لا تبدو فترة مناسبة لأن يغلق فيها الزائر باب الغرفة خلفه، ولهذا فلازلت حتى الساعة أؤمن بأن أحدا لم يرها غيري.

بصفتي الفقير الأعظم في المدينة فإنني كان لابد لي من أن أتدبر أمري بخصوص الحصول على زوجة، ليس لأرضي جسدي، بل لأرضي عقلي، و إذا كنتم تعرفون ما أعنيه بأن زوجتي معلقة على الجدار فلا شك أنكم

ستفهمون قصدي، لكن من أين لكم أن تعرفوا ما أعنيه طالما لم أصفها لكم، وهذا شأني في النهاية أليس كذلك، شأنكم أيضا أن تحاروا فيما أقوله، لكن ساعة النوم دقت، تلاصقت جفوني بقوة، ونمت والغرفة لا تزال مضاءة.

6

أيقظتني نشرة السابعة، وقمت من فوري نحو النافذة، يبدو أنني قد تقلبت كثيرا أثناء نومي، فلقد انفتحت عقدة الخيط ونزل سروالي لأسفل بعد أول خطوة، لم أعبأ به من كثرة النعاس فأكملت سيري بخطوات ضيقة، عاريا وحافي القدمين على أرضية باردة، وقفت أنظر إلى الخارج، كان الهواء باردا يقرص حنجرتي، وكانت السماء رمادية ومحمرة وتبدو وكأنها تستيقظ لتوها مثلي، مشت العربات في الأسفل وتطايرت من خلفها الأدخنة، أرى الناس يركبون سياراتهم ويذهبون بها إلى العمل وهذا يحزنني، إذ أنني لم أقدر حتى الآن على امتلاك دراجة هوائية منذ خمسة وأربعين سنة، وحينما أراهم على تلك الحال فإنها تحدوني رغبة كبيرة في أن أبكي، لم أحدد بعد إلى أي قدر أريد أن أصير ثريا لكن من موقعي في السلم الاجتماعي يمكنني أن أقول أنني لا أحب البقاء هنا مزيدا من الوقت، هنا حيث أنا، في أول السّلم، إنه ليس بالمكان المريح أبدا، وسيكون بديعا إن أنا تحركت ولو خطوة واحدة نحو الأعلى، صدقوني حين أقول لكم هذا، ولعلكم أنتم أيضا فقراء مثلي، لأنني

أؤمن بأن الأغنياء لا يشترون كتبا كهذا الكتاب الذي تقرؤونه في هذه اللحظة.

تثاءبت قليلا وأغلقت ضلفتي النافذة على بعضهما ودخلت الحمام بخطوات ثقيلة، وحين خرجت وضعت وجهي أمام المرآة وأطلت إليه النظر، صديقي أحمد يقول لي دائما أن وجهي لا يمت للفقر بصلة، وبأنه لابد قد حدث خطأ ما، وأن حصتي من المال في هذه الدنيا لابد وأنها بيد شخص مريع له وجه قبيح المنظر، سألني مرة إن كنت أرغب في كسب المال فقلت له وأنا أرشف قهوتي، من ذا الذي لا يحب كسب المال يا رجل، التلال وحدها من لا تريد كسب المال، والزهاد... والزهاد أيضا، وما أنا بتل وما أنا بزاهد... ضحك بعدها حتى سعل، وحينما استجمع نفسه في النهاية قال لي إذا أردت أن تكسب المال يا جواد فعليك أن تتوقف عن كونك عبدا للناس وتأخذ في التفكير في مشروع تنقذ به نفسك.

أبدو في الخامسة والخمسين من عمري، رغم أنني أقل من ذلك بعشر سنوات كاملة، وأستطيع أن أعيش يومي بعمر أقل إن أنا حصلت في الصباح على وجبة جيدة، إنّ الفقر دائي والمال دوائي ولا أملك أن أربط بينهما إلا على هذه المرآة الصغيرة حينما أضع وجهي أمامها فأرى انعكاسهما، أنا

شخص نحيل جدا، أزن كما يزن الفقراء عادة، وجلدي يميل إلى الصفرة، وشعر رأسي أصفر، وعيناي زرقاوتان وهكذا بالمجمل يكون وجهي شبيها بوجه رجل من الطبقة النبيلة، رجل لا يحسن به أن يكون فقيرا.

أنا رجل عربي نحيف له عينان غائرتان يعيش في مسكن ضيق في عمق مدينة مكتنزة، قد غزى الشعر ذقنه وتحت أنفه، جيبه فارغ ويشتهر بالفقر والسرقة بين الناس اللذين يعرفونه، رجل مثل الذي ذكرت، لابد أن يكون أنا ولا أحد آخر... تحسست الشعر على ذقني ورحت أمسحه بأداة حادة، حتى إذا فرغت كان وجهي قد تبدل... تبدل وصار يشبه وجه رجل فقير ليس له لحية، أعرف أنني ذكرت الفقر أكثر مما ذكرت أي كلمة أخرى، وأنا أخاف الفقر كثيرا، وتعرفون هذا، شيء واحد لن أحترمه طوال حياتي، إنه الفقر، ولن أصدق كلام الناس حين يقولون أن الفقير له كرامته، فهو قد التصق بي بغير انقطاع منذ طردوني من العمل، وأنا لم أسرق ويمكنني أن أقسم على هذا بالطريقة التي يؤمنون بها، أنا لم أسرق يا سادة، خمسة وثلاثون سنة عشتها ولم أسرق ولا مرة واحدة، لكنني مع ذلك أحمل لقب السارق الكبير في المدينة، وهذا اللقب قد التصق بي وحاصرني مثل جلدي، وبسبب هذا اسودت أفكاري كلما عشت أكثر.

يا صاحب الجامع إنك شاهد على ما أقوله، و إن كنت كاذبا فلتخرج نار من تحت قدماي اللحظة وتحرقني مثل ورقة، إنني كان لي دفاتر وحسابات وأقلام ملونة وحاسوب وفأرة وكل تلك الأشياء التي تصلح أن تكون فوق مكتب مُحاسب، إني كان لي عمل، وراتب، كنت أعمل من الثامنة صباحا حتى الخامسة مساءً في شركة تختص في استيراد الأحذية، كنا نأتي بها من خارج البلد ونعيد توزيعها هنا لدى المتاجر والمراكز التجارية الكبرى، حسب ما أتيح لنا... و إنني أخبركم بهذا تمهيدا للآتي، إنني وبصفتي كنت عضوا فعالا في هذه الشركة فإنه لابد وأن تكون عملية طردي من العمل قد تمت بطريقة مخزية، مهينة حد القرف، بحيث لن تتملكني رغبة حينها في أن ألتفت لأستلم راتبي الأخير قبل المغادرة، لقد تركته، يا إلهي... كم كان ذلك جارحا لكرامتي، هأ هأ هأ... هل تصدقونني لو أخبرتكم أنني نسيت ما تعنيه الكرامة؟.

وضعت فطور القطة على الأرض وخرجت مسرعا، آه كم أحب ذلك المقعد قرابة عمود الإنارة، في تلك الساحة الكبيرة، لا شيء سيجعلني أمل من الجلوس هناك بعد التاسعة ليلا، أو عند التاسعة صباحا، جلست، محل الطعام لم يُفتح بعد، واليوم هو يوم السندويشة، ولذلك وجدت أنه لا يزال لدي

وقت لأفكر في طريقة أخرى تمكنني من كسب بضعة دنانير لأسدد بها ثمن الرغيف حتى أتمكن من استعادة حزامي، نظرت للسماء في ملل، يا ليتني سحابة، قلت لنفسي، يا ليتني كنت قطعة غيم بيضاء كتلك التي تظهر في يوم ربيعي مشمس، تزين السماء ببياضها، وتبقى لساعتين ثم تطحنها الريح تماما فلا تبقى موجودة، تكون ثم لا تكون، أجمل قصص الحياة التي عرفتها كانت حياة السحب، إنها لا تؤلم أحدا أثناء ولادتها كما أنها لا تتألم أثناء موتها، ولا أحسبني أقدر أن أصدق أنها خلال تلك الساعة، أعني فترة حياتها، فترة انزلاقها في صفحة السماء الواسعة، لا أحسبني أقدر على أن أصدق أنه سيكون متاحا لها أن ترتكب آثاما قد يكرهها أحد لأجلها، اللهم إلا إذا دمرت زرعا.

أجلس على المقعد عادة وأجعل رأسي يسقط إلى الخلف بينا أضع يداي في حجري وأغمض عيناي فلا أرى سوى أفكاري بعد ذلك، على ذلك المقعد الذي يتسع لأربعة جلوس، جالست نفسي مرارا وتكرارا وفاتحتها في مواضيع كثيرة لم ننتهي من أي منها، دون أن ننجح في فهم بعضنا... كنت أقول أن السحب البيضاء التي تشبه صوف الوسائد لهي مخلوقات بديعة، فإذن ماذا يكون المخلوق البديع إن لم يكن سحابة؟... أتذكر الآن والدي،

وأتذكر أيضا كلامه بشأن الغيوم السوداء المثقلة، وكان أخبرني أنها إنما ترشح منها ذنوب العُصاة بعد أن يتم غسلها، قال أن العُصاة عندما يبكون تذهب دموعهم مع نور الشمس العائد في المساء فتعلق في السحب فتُغسل وتبقى هناك حتى تُقبل توبتهم، ثم تسقط الرحمات على الناس في شكل قطرات ماء باردة، وعندما سألته أي عُصاة يقصد، فإنه نأى عني ولم يجبني. فلم يعد رجلا متدينا بعد أن بلغ الأربعين من عمره.

منذ البداية شككت أن والدي رجل أحمق، كان ذلك عندما رأيته يطهو صخور برية بداخل قدر صغير في الحديقة، ماء الصخور المغلي، كنت في العاشرة... قال أنه يساعد في طرد الحشرات المؤذية، وكنت أرى مدى تأثير ذلك الماء الناتج عن غلي الصخور في وجه أمي، يمكنكم أن تتخيلوا أنفسكم وأنتم تنامون بجوار شخص يدهن جسمه بماء الصخور المغلية، لربما أمكنكم أن تكرهوا والدي مثلما كرهت أمي رائحته.

هذا الحذاء الذي في قدمي، دعوني أحمله بين يداي هكذا، لحظة... إن هذا الحذاء هو بعض راتبي الذي بقي منذ عشر سنوات لدى الشركة، وكان هذا خامس حذاء آخذه من المحل التابع للشركة منذ ذلك الوقت، حذاء واحد

كل سنتين، و إذا كنت لا أزال قادرا على فهم الحساب فينبغي أن يكون قد تبقى اثنان فقط، وهكذا تفهمون مثلي أن راتبي كان سبعة أحذية، سبعة أحذية حقيرة... أحيانا يساورني الشك في أنني قد خسرت عملي، ولا أنفك أخبر نفسي أنني إنما قد تحررت، ذلك أن الاستيقاظ صباح كل يوم والذهاب لمساعدة رجل آخر في تحسين ثروته لهو أمر مألوف لدينا إذا قررنا أن نتفكر فيه لدقيقة واحدة، ألا يشبه هذا ما فعله السود خلال سنوات مضت في الأراضي الغربية حينما كانوا يحرثون التربة أكثر من الحيوانات نفسها؟... ألم يكونوا يستيقظون قبل الشمس ولا ينامون إلا بعد أن تكون ثروات أسيادهم قد تحسنت بمقدار يمكن ملاحظته؟... ما في الأمر أن العالم قد تطور في كل شيء حتى في العبودية، وبدل أن يدفعوا للعبد طعاما مثلما كان الحال عليه في السابق ـحتى لا يتوقف هذا العبد عن التنفس مادام قادرا على خدمتهمـ صاروا يدفعون له مالا ليذهب ويشتري طعامه بنفسه!!، فما الذي يمكن أن يكون قد كسبه عبد هذا الزمن حين تأتيه الوفاة في آخر العمر؟... الكثير من ذكريات العمل.

7

العاشرة صباحا، رأيت السيد خليل يفتح باب مطعمه فقمت من فوري ودخلت خلفه مباشرة وقلت بينا أجرّ صندوق البطاطس إلى الضوء حيث يمكنني رؤيته :

- " كيف حالك اليوم يا سيدي؟."

- " لا أدري... اجعلها مثل الأمس تماما، لا صغيرة ولا كبيرة، لقد أُعجب بها الناس قليلا".

أخذت كرسيا وجلست عند مدخل المحل واضعا صندوق البطاطس عن يميني وآنية البلاستيك الكبيرة عن يساري ورحت أعالجها مثل الأمس تماما، لا صغيرة ولا كبيرة، بحيث تُعجب الناس قليلا.

فقط نصف ساعة من العمل، ويكون دوام عملي قد انتهى، وهذا كل شيء، يبقى أن آخذ فقط، أجري على أن أعود إليه في وقت لاحق.

هذه المحلات التي تصطف على الأرصفة لا تتوقف عن تحصيل النقود أبدا، ربما لو كنت في زمن مضى، قبل عشرين سنة مثلا لكان بإمكاني تقدير قيمتها بشكل عقلاني أكثر، لكنني الآن، والحال هذا، قد صرت أراها

تقارع شركات عملاقة، لأنّ ما بِتُّ أجنيه خلال سنواتي الأخيرة بالنسبة لمحل واحد يعادل ما يجنيه هذا المحل بالنسبة إلى شركة عملاقة.

خذوا محل الأحذية هذا على سبيل المثال لا الحصر أبدا، إنّ صاحبه كان يأتيني والدمع يطفح في عينيه من أجل أن أحول إليه شيئا من السلع التي كنا نجلبها من الصين بأثمان مناسبة، لكنني الآن لست أكثر من ريح يمر أمامه، وهذا... محل الحلوى، كم اقتطعت من راتبي لأجله، ذلك أنني كنت رجلا يعشق الحلوى، أقسم أنني لم أتناولها منذ فقدت عملي، منذ عشر سنوات كاملة... هذه ذكريات موجعة، حقا... لكن لا بأس أن أحكيها ما دمت سأموت على أي حال.

محل الملابس، الآن انتبهت إلى نفسي، ثمة عرق يتصبب من بين فخذي، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى شخص يسير تحت حر الشمس دون سروال داخلي، قد تبدو حكاية مبالغا فيها بعض الشيء، لكن كونوا على ثقة أنها في الواقع أسوأ مما أحكيه لكم، فكيف لهذه الصفحات القليلة أن تخبركم عن عشر سنوات كاملة، كيف؟، أنا لم أجلس إلى هذه الطاولة لأصف حياتي لأناس لا أعرفهم بلا سبب، رغم أنني متأكد من أنهم أناس رائعون بحق، رائعون بحيث قد يفتحون كتابا مملا كهذا، رائعون حتى ولو كانوا فقراء بقدر

مشابه، إذ ما الذي قد يمنع إنسانا فقيرا من أن يحمل طباعا رقيقة بداخله؟ هل الجميع ضعفاء مثلي بحيث لا يتحملون صعقات اليوم؟ لا أعتقد، حسنا، إنني أكتب هذا الكتاب إلا لأصف مجتمعا عشت فيه مثل قملة في رأس طفل يتيم، ثمة كل يوم عشرة أصابع تحاول إسقاطها، لكنها تتشبث، وتتشبث وتتشبث، إلى أن يقع عليها طرف أصبع من قبيل الصدفة، وأنا قبل أن يقع عليّ هذا الأصبع فإنني أريد أن أفرغ داخلي بطريقة تعبر عن رقيّ وذوق بارع، ذلك أنني لم أولد بجيب فارغ، بل لقد كنت في وقت مضى فردا تأتيه ورقة كشف الراتب في نهاية كل شهر تماما مثل أي إنسان آخر.

هنا تقع المخبزة، تلك المخبزة التي أخذت منها رغيفا يابسا بالأمس، أعرف أن حزام سروالي لا يزال بالداخل، ذلك الفتى أمين بشكل لا يصدق.

الحقيقة أنّ كون الإنسان غير محبوب في مدينة ما لهو أمر له إيجابياته، لا أحد يتطلع إليك، لا أحد يكلمك، لا أحد يراقب حركاتك الغريبة، لا أحد يحسدك، لا أحد يدعو عليك بالشر، والأهم من ذلك كله هو أنه لا أحد قد يطلب منك شيئا، لم يكن الأمر بهذا السوء منذ البداية، لكنه ظل يتطور مع مرور الوقت، فلم تكن أي سنة تشبه التي قبلها، في كل عام كنت أزداد غربة، وكانت المسافة بيني وبين الناس تزداد بعدا، وكنت وأتحول إلى رجل غير

الذي خُلقت، حتى صرت إلى هذا، أنا الآن أتعس رجل في المدينة، لا مال ولا أهل، لكن رغم ذلك لا يزال عندي معارف، على قلتهم، ولو رحت أعدهم على أصابع يداي لبقي لدي إصبع أو اثنان دون أن أطبقهما، ولإحقاق الحق فأولئك أناس قد اضطرتني الحياة إلى التعامل معهم، وإلا... من بين معارفي يوجد السيد أحمد، بائع مواد البناء، وهو صديقي منذ أيام الرخاء كما أذكر، إنه يكسب مالا كثيرا، لكنه في العادة يأتي إلى محل الوجبات السريعة، عدت إلى المحل بعد ساعتين.

رأيت السيد أحمد يقف في الطابور في انتظار أن يحصل على وجبته، فتقدمت نحوه وسلمت، لم يرد عليّ أحد، ألف ألف عين نظرت نحوي، ثم ارتدت جميعها بنفس النظرة الرتيبة، قال السيد أحمد وهو يستلم وجبته الحارة :

- " هاه، أتيت في وقتك، ربما سأحتاجك غدا، لدي عامل أصيب اليوم بمجرفة، سأمر عليك غدا إن كنت متاحا".

قلت :

- " حقا، رائع ."!!

- " أجل، كادت قدمه أن تقطع..."

- " لا، أعني..."

وقاطعني بينا يتساقط فتات الطعام من فمه الواسع :

- " خذ وجبة لنفسك، ستكون على حسابي..."

وخفق قلبي بشدة، أيعقل؟، هل هو حقا قد قال ذلك؟، أمسكت ريقي بصعوبة وانتظرت طويلا حتى ابتلعته، ورحت من فوري نحو خليل بعد أن غادر السيد أحمد بشاحنته ووقفت وكأنني غير مكترث رغم أن قلبي كان يهتز من الفرح، قلت:

- " ناولني تلك النقود من فضلك، لن أستطيع أن أتناول وجبتين على الغداء كما تعلم، فبطني ممتلئة منذ الصباح الباكر..."

وأخرج خليل نقودا تعادل ثمن وجبة، ناولني إياها بنظرة تنم عن أنني أكذب، ثم صنع لي أخرى لقاء عملي عنده في الصباح فالتهمتها على مقعد في الزاوية، والحق أقول لقد تملكني خوف بحجم صدري، لم أكد أصدق ما حدث، اهتزت عيناي كثيرا وأنا أراقب تلك النقود في يدي، وما إن انتهيت حتى قمت أهرب فشكرت خليل بصوت بعيد وغادرت المكان بسرعة.

8

ـالواحدة بعد منتصف النهارـ

خرجت من المخبزة حاملا رغيفي خبز وقد استعدت حزام سروالي أيضا، لو أن السيد أحمد يدرك فقط، يدرك مقدار الخير الذي صنعه من أجلي، لربما ركبته رغبة ولو يسيرة في تكرار تلك الصنعة، رغم أنني متأكد من أنه لم يفعلها من غير سبب يتجاوز حدود تفكيري.

تذكرت أمرا فجأة فتوجهت إلى محل الحيوانات مرة أخرى، دخلت شارد الذهن وكدت أصدم فتاة جميلة كنت أعرفها من مبعدة، وكانت تبتاع طعاما لقطتها، ما شدني لحظتها هو حزمة النقود التي دفعتها لقاء بعض العلب، حتى لقد دفعتني الدهشة إلى أن تحولت إلى تمثال صُنع رأسه بطريقة مبتكرة بحيث يمكنه التحرك يمنة ويسرة، فرحت أتابع كيس الطعام في يدها وهي تغادر المحل، ولم أنظر إلى وجهها أبدا رغم أنني متأكد من أنها لاحظت نظراتي إليها، لقد تذكرت قطتي المسكينة إذ لم يسبق لها أن تناولت شيئا كهذا، ولا رأته حتى، بل لم يحتك لسانها بأكثر من ثلاثة أذواق منذ خمسين

شهرا أو أكثر، ماء وخبز ولبن، ترى كيف سيكون شعورها لو أنني في يوم ما دخلت عليها بعلبة من مثل هذا الطعام؟، أجزم أنها ستعانقني مثل طفلة صغيرة، لكنها رغم ذلك ظلت على وفائها ولم تغادرني، كان بإمكانها أن تتركني وترحل في أي وقت إلى الشارع، وحينها كانت ستتوفر أمامها السبل لتجربة كل أنواع الطعام في هذا العالم، تماما مثل أي قط آخر، أما وهي معي فقد نهيتها مرارا عن التمرغ في حاويات القمامة مهما بلغ بها الجوع أو الظمأ، وهذا أمر يدخل في نطاق نظافتي الشخصية، التفت نحو سعيد بعد أن سألني عما أبتغي.

- " طعام القطط هذا، كم يبلغ ثمنه تحديدا؟."

وقال سعيد وهو منشغل بترتيب بعض العلب التي كانت خلف ظهره :

- " لا أظن أنك بحاجة لمعرفة هذا، أعني حتى و إن أخبرتك فلن..."

- " أجل، أجل... أعلم" كان علي أن أقاطعه بسرعة، فرغم أن سعيد رجل متحفظ فيما يتعلق بكرامة الآخرين فلا يعمد بقصد أبدا إلى إهدارها حينما تتحين له الفرص، إلا أنه شرع في فعل ذلك معي هذه المرة دون أن ينتبه، وأنا إذ قاطعته فقد أنقذت نفسي من أمر أكره أن يحصل معي، وأنقذته أيضا من أمر يكره أن يقوم به، قلت بعد ذلك بطريقة حاولت أن أجعل نفسي فيها وكأن

هذه المرة هي الأولى التي سوف أتحدث فيها منذ دخولي إليه :" عندما أخذت تلك الحشرات، لقد نسيت أمرا... أريد أن أعرف ما الذي يمكن أن تتناوله تلك المخلوقات يا ترى؟"

وقال ببرود بالغ :

- " ألم تطعمها حتى اللحظة؟."

- " أظن أنني لم أفعل..."

- " تلك العناكب قد تكون ميتة الآن".

- " هل يمكنها أن تفعل ذلك؟."

- " ماذا، الموت؟"

- " أجل..."

- " هل لديها الخيار لذلك؟"

- " فماذا ينبغي أن أضع أمامها إن أنا ذهبت ووجدتها مازالت تتحرك؟."

- " حشرات، ذباب وبعوض وجراد أو حتى عناكب أخرى".

- " حقا ". !!

- " أجل..."

- " هذا بديع فعلا".

- " لِما؟"

- " تخيل أن أني قد أنسج لك حبلا حتى تطلع روحك ثم أضعك على مائدة الطعام فأشرع في تناولك ". !!

- ...

- " هأ... إنني أمزح، ما أعنيه أن الأمر بديع حقا، إذ كيف..."

- " دعني أذكرك أن تلك الحشرات قد تشكل خطرا على حياتك..."

ورحت أمثل بيدي قائلا :

- " إذن سألقي إليها الطعام من السماء هكذا، لن تصل إليها يداي أبدا.. "

- " فقط كن حذرا، لكن هل بمقدوري أن أفهم ما الذي تفكر في فعله؟"

- " لا أظنك بحاجة لمعرفة هذا، فحتى و إن أخبرتك فلن... " حاولت هنا أن أستعيد ذلك الشيء القليل من كرامتي الذي كدت أن أفقده في البداية، لكنني انتبهت فجأة إلى أنني قد وضعت نفسي في مأزق بحجم بذرة، أو كوكب، إذ أنه لم يقاطعني مثلما فعلت معه، لقد استمر بالإصغاء وكأنني كنت ألقي كلاما مفيدا لمسامعه، ووجدتني أبحث بعدها عما سأقوله لأتم تلك الجملة، لقد توقفت عند تلك الكلمة التي كان يفترض أن تتم مقاطعتي

فيها، فكرت لبرهة، ثم سحبت ذراعي من على الكنبة بينا أقول بحرج أظنني نجحت في إخفائه :" أنا فقط أحتاج رفقة، إلى المزيد منها..."

أصبحت أندفع أحيانا إلى القيام بأمور غريبة، ودون تفكير مسبق، فقط تأتيني تلك الفكرة، فأشرع في تنفيذها، ولم تكن هذه طبيعتي منذ البداية، بل اكتسبتها خلال عشر سنوات كاملة، ثم إن وتيرة الأمر باتت تزيد يوما بعد يوما، رغم أنني قد دُفعت لهذا دفعا، وليس لي فيه كثير حيلة.

عدت أدراجي نحو النزل بعد يوم وفير استطعت فيه أن أجلب طعاما لنفسي وللقطة أيضا، عبرت أمام مكتب البخيل فلم أره، وقد أراحني ذلك جدا، دخلت مزهوا إلى شقتي، ومن أول وهلة وثبت القطة نحوي بعدما خطفت أنفها الصغير رائحة اللبن، عالجت لها طعامها ثم أخذت الستارة إلى جانب ورحت نحو علبة العناكب لأتفقدها.

فكرت قليلا إن كان علي أن أطلق عليهما اسما، على الأنثى ربما، لأن الذّكران على الأغلب لن يعيشا لأبعد من عشرين يوما، إنها أكبر منهما حجما، وشكلها بديع بحق، إنها سوداء بالكامل مع وجود موضع صغير أحمر

على ظهرها، وآخر على بطنها يشبه الساعة الرملية، وهذا أمر مهم جدا بالنسبة لي، باعتبار أنها سوف تذكرني بالوقت كلما نظرت إليها.

بعد قليل من التفكير قررت أني سوف أناديها مثلما يفعل الجميع في هذا العالم، الأرملة، أجل، و إنني الآن قد كنت أتحرق شوقا لأراها كيف ستصبح كذلك، لم أعثر حتى اللحظة علي طعام يناسبها، فالذباب قد اختفى لأن الجو بارد، لكنني قررت أن أذهب في اليوم التالي لأجد لها الكثير من الطعام الذي يناسبها، وحتى الغد، أرجو ألا تموت.

كانت القطة قد أنهت طعامها ومددت ساقيها على الأرض وراحت تراقبني، رفعت العلبة فوق الثلاجة مرة أخرى، أدرت الراديو ثم استلقيت على السرير منهكا، ضوء المساء يبعث على الاسترخاء التأمل، حدقت طويلا في المروحة بينا تتغلغل أحاديث الراديو في أذني، تلك الأجنحة تدور باستمرار دون أن تنجح في اللحاق ببعضها، تُرى هل طبقات الناس المختلفة تشابه أجنحة المروحة أيضا، جميلة هي إن ظلت بينها مسافة، فلا يجوز أن تلتصق ببعضها؟ هل حقا سيتهدم العالم إن تساوت أرصدة الناس كلهم؟، لا أدرى، ولا أستطيع تذكر كلمة واحدة مما قاله الراديو في ذلك المساء، لكنني أذكر أنها كانت إغفاءة جميلة، رحت في نوم خفيف وكأن غيما كان يحملني، ولم

أفق إلا وقد مر ذيل القطة على أنفي، رفعت رأسي وإذ بالليل قد حل بالكامل.

شعرت ببرد لاذع فور أن استفقت ورفعت رأسي، وتذكرت أنني قد تركت النافذة مشرعة، وحينما قمت لإغلاقها تذكرت أنه ينبغي علي أن أخرج إلى الشارع، لكنني حينها رأيت أمرا عجيبا في الأسفل.

كان من الغرابة بحيث أنني لم أشرع في تصديقه من أول وهلة، بل إن جسدي اقشعر بالكامل، ورحت أنظر إلى فراشي لأرى إن كنت لا أزال هنالك، أغط في النوم ربما.

9

أقسم أنه لم يسبق لي أن عبرت من أمام المرآة بتلك السرعة، ولا فتحت الباب بمثل تلك الخفة، ولا نزلت الأدراج بخطوات أضيق من تلك التي نزلت بها حينها، ولكنها مريم، ألمع مخلوق على هذا الكوكب، فماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد خفت أن تختفي مجددا، لسنة أخرى، لكنها الآن تجلس لوحدها في الخارج، في هذا الليل البارد، وعلى المقعد الذي أفضله، فماذا أكون أنا إن لم أتصرف بتلك الطريقة؟.

حاولت أن التقط نفسا قبيل خروجي من البناء مباشرة، وجعلت خطواتي تبدو أطول قليلا، وكأنني اعتدت على الخروج ككل مرة لأدخن سيجارة في الخارج، نظرت إليها من مكاني وكانت تجلس خلف الرصيف المقابل، مرتدية ثوبا أزرق قد نبتت عليه زهور برية، في الأسفل تماما فوق ساقيها، كانت تمسك علبة شطرنج في حجرها ورأسها منكس مثل عنق وردة، ظلت دقات قلبي تضطرب، ورحت أعبر الطريق نحوها.

جلست بجانبها ولم أكن قد أخرجت يداي من جيبي سروالي بعد، ثم إنني وضعت ساقا فوق أخرى ورحت أهز حذائي المرقع هزات خفيفة، وبعد فترة رحت استرق النظر إلى حذائها الأبيض ثم قلت بصوت مثلج :

- " هذا البرد الذي يجوب الأزقة منذ ساعة، منذ المساء ربما، إلا يؤذيك أبدا؟"

أعلم يقينا أنني لو عشت في أزمان مختلفة، في أكثر المناطق سحرا، تلك المناطق التي تتميز بجمال فتياتها، لما وقع لي أن ألتقي فتاة بمثل جمالها، ناهيك عن أن أجلس إليها، في أحب الأوقات إلى قلبي، وأقرب الأماكن إلى نفسي، لقد تساءلت مرة عن نسبة نجاح البخيل في إنجاب فتاة مثلها فوجدتها صفرا، ربما يكون قد سرقها من الميتم، أو ربما وضعها أحدهم عند باب بيته في قفص صغير في يوم عاصف، في النهاية أليست أغلب تلك الحالات تصدر من شاب وفتاة يتسمان بالوسامة؟، حينما أفرغ للتفكير فيها تهطل علي فرضيات مثل هذه، رغم أنني أعلم بأن والدتها كانت جميلة مثلها، فإذن هي بذرة دوار شمس نبتت ببول رجل قذر، ذلك البخيل ليس له أي فضل في إنجابها، هذا ما أخبر به نفسي عادة، وهو ما لن أتوقف عن تصديقه أبدا.

لن أتحدث عن وجهها الصغير الناعم وفمها العذب وأنفها البارز الجميل وعينيها الهادئتين وحاجبيها العريضين ولا عن يديها اللتان تشبهان رغيف خبز دافئ ولا عن جسدها الذي لا تشوبه شائبة، بل غاية ما أريده هو أن أصف لكم كم أنها مخلوق كامل وبديع في خلقته، بمقدور أي واحد منكم أن يتخيلها بطريقته ولكنه لن يفلح في ذلك، إنها من الجمال والرقة بحيث لا يقدر إنسان على تصورها ما دامت عيناه لم تقعا عليها، إنها مثل الغيب لو صح لي أن أقول هذا، هي غيب عليكم، وليس عني، ولقد رأيت ابتسامتها في تلك اللحظة حين قالت:

- " نعم..."

ويا لها من" لا " تلك التي قالتها، أقسم أنها أجمل لا قيلت يوما، وماذا كان عليّ أن أقول بعد ذلك؟ إنها مريم، وأنا... وليس بيننا غير الهواء والظلمة، وأنّى لهذا الهواء البارد أن يؤذي فتاة في مثل رقتها؟ نظرت إلى حجرها وقلت :

- " مازلت تلعبين لوحدك؟."

فعانقت لوح الشطرنج أكثر لكن ابتسامتها ذهبت بعد ذلك، وشعرت أنني قد كسرت لحظتنا، لكنها ابتعدت إلى طرف المقعد فجأة وأفردت لوح الشطرنج بيننا فأدركت أنها تريد مني أن ألعب معها.

أجل، إنني أحب أنفها كثيرا، رغم أنني متأكد من أنها تشعر بالخجل من شكله، وتظن بأنه قد لا يناسبها، بل لتسقط عيناي من وجهي إن كان لا يناسبها، وليسقط لساني، وليسقط مني كل عضو بمقدوره أن ينبهر بأنفها فلا يفعل، لقد نظرت إلى شفتيها مطولا بينا كانت تُعِد قطع الشطرنج في أماكنها، لكن حين راقبت عينيها بعد ذلك أدركت بأنها لا تريد سوى أن تلعب ضد شخص حقيقي هذه المرة، ذلك أنها في العادة، وهي تجلس وحيدة في غرفتها، إنما تركن إلى اللعب بمفردها من الجهتين دون أن تقلب لوح الشطرنج أو أن تنتقل بنفسها إلى الطرف الآخر، وهذا ما يميزها عن غيرها من الفتيات أيضا، إذا أنا وضعت جمالها في كفة أخرى.

إذا كنت سأخبركم بالمزيد عن مريم فلا شك أنّ هذا هو أنسب وقت لذلك، إن مريم ومنذ وفاة والدتها تغير فيها شيء ما ولم تعد كما كانت، فصارت في كثير من الأحيان تقول أشياء هي عكس ما تود قوله، لقد سألتها قبل لحظة إن كانت تشعر بالبرد وكانت إجابتها نعم، وذلك يعني أنها لا تفعل، ربما لهذا تجد في نفسها أحيانا ما لا يمنعها عن محادثتي، إذ أنني الشخص الوحيد الذي يفهمها، وحتى والدها لم يقدر حتى اللحظة على أن يعتاد على طريقة كلامها الغريبة، ولولا هذا، أي لولا أنه يعرف بأنني أمتلك مثل هذه المقدرة

لكان قد طردني منذ فترة طويلة، تبقى المشكلة الوحيدة الآن هي أنني لا أحسن لعب الشطرنج كثيرا، و إلا فقد كنت أود أن أمنحها لعبة جيدة، لكنها استطاعت أن تُلحق بي الهزيمة ببضع حركات فقط، لم أعرف حتى كيف قامت بذلك، لقد حركتُ قطعتين أو ثلاثة فقط، ثم سمعتها تخبرني بأن اللعبة قد انتهت، وراحت تعيد ترتيب قطع الشطرنج من البداية.

بعد سبعين لعبة أخرى سألتها قائلا :

- " أمازلت تغزلين الصوف؟."

- " لا..."

- " هاه، جيد... وماذا عن العزف، لم أسمعك تعزفين منذ مدة؟."

- " البيانو، لقد عمل بشكل جيد لفترة طويلة..."

- " هذا مؤسف، ربما يمكنني محاولة إصلاحه، هل أمر عليك غدا؟."

- " أجل..."

- " هل أمر؟."

- " لا..."

- " حسنا، ربما أمر عليك بعد الظهيرة، سيوف يكون لدي عمل قبل ذلك وسوف أنتهي منه سريعا..."

- " حسنا..."

مر بيننا من الوقت ساعة، وكانت لا تزال تريد اللعب، لكنني كنت بالفعل قد شعرت بالملل من تلك اللعبة لأنني أعجز عن فهمها، فرأيت أن أظهر لها ذلك بطريقة لا تكسر خاطرها، لقد سألتها عن حال والدها، فرأيت يدها تتوقف في الهواء ثم راحت تنسحب بهدوء إلى حجرها، وقالت بعد أن فكرت لساعة :

- " هل مازلتما لا تحبان بعضكما؟."

- " ماذا، أنا؟ لا، ليست لدي معه أدنى مشكلة، لكنه يمتلك كل الحق في أن يكرهني..."

- " لا يمكنك أن تلوم الناس على كرههم لك إن كنت أنت أيضا تحب نفسك..."

وهنا تجمدت أوصالي، وشعرت حقا أن برد الليل قد تسلل إلى دمي، فضللت صامتا لبرهة ثم قلت والخجل يعصرني من الداخل :

- " أظن أنك قد تمكنت فعلا من ملاحظة هذا... "

- " من الصعب ملاحظته..."

- " هممم... يولد البعض عراة جائعين ثم يزداد الأمر سوءا..."

- " و إن يكن؟"

- " ألا ترين في هذا بأسا؟ ".

- " لا..."

- " لا تعني لا؟."

- " أجل..."

لقد خفق قلبي بشدة ها هنا، لأنه ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يُظهر لي فيها أحدهم أنه بمقدوره أن يتقبلني بقدَري الذي أنا فيه، لقد سعدت بجوابها أيما سعادة، بل كدت أمقت نفسي في تلك اللحظة، إذ قلت في نفسي أنه لابد يوجد شيء مميز في حياة الفقراء تعرفه هذه الفتاة الجميلة ولا أعرفه، رغم أنني أنا الفقير هنا، أردتها أن تتحدث بشأن هذا الأمر أكثر، فقلت وأنا أخفي حماستي تحت حلقي :

- " لكن الأمر صعب، أعني حينما يولد الإنسان فقيرا فإن كل تفاصيل حياته تغدو صعبة، حتى السهلة منها..."

- " لعلك تعتقد بأن كل الأغنياء يحظون بسعادة تامة؟."

ارتبكت قليلا ثم قلت أجيبها :

- " لا أريد أن أقول نعم..."

- " حسنا..."

- " لكن..."

- " يمكنني أن أتحدث في هذا الأمر أكثر إن كنت ترغب".

- " أجل، سأحب هذا..."

- " ربما لم أقضي الكثير من الوقت خارج غرفتي، لكنني بالفعل قد قرأت ما يكفي من القصص وعرفت القليل عن الحياة، من أقلها متعة إلى أكثرها... ويمكنني أن أفهم بأن السعادة والبؤس يمكن أن يصيبا الشخص الغني مثلما يصيبان الشخص الفقير تماما... ."

- " ولعلك تودين إخباري بأن السعادة والبؤس خياران متاحان للجميع..."

- " لا..."

وتململت قليلا ثم قلت بعد ذلك :

- " حسنا، سيكون من الصعب عليّ أن أفهم هذا، لأنني لا أرى طريقة لذلك، أعني لقد حاولت مرارا أن أشعر بالسعادة، خلال العشر سنوات الماضية، لكن ذلك لم يحدث معي مطلقا، لم أنجح، لم أرها..."

- " هذا لأنك تقف أمام مرآة خشبية".

- " ماذا تعني؟."

ولم تجبني، بل قامت وحملت لوح الشطرنج بين يديها :

- " علي أن أعود إلى الداخل الآن، قد يستيقظ أبي في أي لحظة..."

قمت من خلفها، ولما رأيتها قد ابتعدت قلت وقلبي يرعد بشدة :

- " هل هذا معناه أن الأسفلين يمكن أن يكونوا ذوو قيمة أيضا؟."

وسمعتها تقول وهي تختفي عند مدخل النزل :

- " لا..."

توجهت بعيدا عن الساحة ورحت صوب جدار المشردين وسألت عن عليّ لكنه لم يكن موجودا، قيل ليي بأنه قد غير مكانه منذ الليلة الفائتة، ولذلك عدت أدراجي نحو النزل.

10

صباح كئيب آخر لأسفليّ مثلي، كان من أثر نومي المتأخر بالأمس أنني استيقظت في وقت متأخر أيضا، ولم أُستعد جيدا، أطعمت قطتي وألقيت بعضا من فتاة الخبز في علبة العناكب علها تجد فيه ما تأكله ثم ودعت زوجتي وخرجت مسرعا، كان السيد خليل قد افتتح مطعمه منذ بعض الوقت، ورحت فسلمت عليه ثم أخرجت صندوق البطاطس فجعلته بين ساقيّ وانهمكت في تقشيرها، وجاءني السيد خليل بعد لحظة فقال وهو يمضغ قطعة من الجزر :

- " مثل الأمس تماما..."

- " لا صغيرة ولا كبيرة..."

- " أجل يا سيد جواد، سيكون ذلك حسنا..."

يقال إنّ الجزء المسئول عن إيجاد حلول للمشاكل في دماغ الإنسان قد يتفرغ للعمل بوتيرة أحسن حينما ينهمك صاحبه في القيام بعمل يثير الضجر، تذكرت ما قالته لي مريم في الليلة الماضية عن كوني أنظر في مرآة خشبية، حاولت كثيرا أن أجد تفسيرا لكلامها، لكن تقشير البطاطس لم يكن عملا

مضجرا بالقدر الذي يبدو عليه، على الأقل ليس بما يُمَكّنني من فهم كلامها، انتهيت من العمل بسرعة، ورحت نحو مخرج الطريق الرئيسي للمدينة، وهنالك انتظرت قرابة النصف ساعة حتى أتى السيد أحمد يقود شاحنته الصدئة.

في الطريق ظل السيد أحمد يحك بطنه المنتفخة وهو يبربر عن غلاء المعيشة، قال أنّ أسعار السمك ارتفعت بشكل جنوني خلال يومين فقط، وما هو هذا السمك؟ لا أدري، أخبرني أيضا أنه رزق بطفلة صغيرة، وحينها تذكرت السبب الذي جعله يدفع لي ثمن تلك الوجبة، لقد كان ذلك بمثابة احتفال صغير قام به معي، لم أحفظ اسم تلك الطفلة، ربما لأنني انشغلت بمحاولة تذكر طعم السمك، وكيف كان يبدو، ولو أنه أخبرني أنه بطعم البطيخ لصدقته، اهتزت بنا الشاحنة طوال الطريق نحو مكان العمل، خارج المدينة، كان السيد أحمد قد استولى على أرض صغيرة هي ملك للدولة وأقام مملكته فيها، فبعد أن طرد الأطفال اللذين تعبوا في إصلاحها وإبعاد الصخور والأشواك عنها وأفسد كرتهم جاء بكتل من الرمل والآجر وصبها فيها، ثم كتب رقم هاتفه في لوحة خشبية كبيرة ورفعها على حافة المدخل وبدأ العمل.

كان ثمة شاحنتان في انتظارنا، وكان عامل يجلس تحت ظل جدار الغرفة التي يشغلها مكتب السيد أحمد، وقام فور أن رآنا إلى مجرفته، التقينا عند جبل الرمل الأصفر لنتعاون في ملأ حوض الشاحنة.

وقبل أن نشرع في العمل سألته وأنا أنزع سترتي لألقيها بعيدا حتى لا تتسخ :

- " هل أنت الذي أصاب العامل الآخر في قدمه؟."

وتطلع إلى وجهي قبل أن يرمي عقب سيجارته بلحظة :

- " لماذا، هل أنت ابن عمه؟ هل جئت لتثأر؟."

- " لا، لكن سأحب أن أعمل بحذر أكبر إن كان أنت من فعل به ذلك؟."

لم يجبني بعدها، وأخذ مجرفته وراح يأخذ الرمل ويلقيه في حوض الشاحنة خلف ظهره.

بعد ربع ساعة كنا نوشك أن ننتهي من أول حمولة، حينما توقفا لنأخذ نفسا، قال العامل يخاطبني :

- " لقد أصاب نفسه، حذرته مرارا من أنه ينبغي عليه أن يرتدي شيئا في قدمه، لكنه يحب العمل حافي القدمين، ولذلك عبرت المجرفة إليهما..."

قلت في نفسي :

- " هكذا إذن، يا لي من أحمق، ليتني بقيت صامتا منذ البداية..."

- " هل أَخبرك بما ينبغي علينا فعله اليوم؟."

- " من، السيد أحمد؟ أجل، لقد أخبرني، وسوف ننجزه حتما..."

عندما أتممنا ملأ الشاحنة وضع العامل رأس المجرفة تحت إبطه وقال :

- " إنتهت واحدة، وهكذا يكون قد بقي عشرة أخرى..."

تظاهرت بأنني لم أسمع كلامه، أو أنني لم أكترث، لا أذكر ما الذي تظاهرت به في الحقيقة، لكن شوكا سقط في حلقي حينها، نحنحت بحرقة، وأنزلت رأسي لأخرج الريق الممزوج بالأتربة، أهذا ما كان يتحدث عنه حينما سألني إن كان السيد أحمد قد أخبرني عما سنفعله هذا اليوم؟ لكن ذلك الغبي لم يخبرني، قال أنه مجرد يوم عمل آخر، وذلك العامل راح يتطلع في شكل جسمي محاولا ألا يجرح كبريائي، يمكنني أن أسمن ثلاث مرات في هذه اللحظة ولن أصل لضخامته، قلت ذلك في نفسي، وأنا رجل هزيل جدا، يناسبني أن أملأ أربع شاحنات على الأكثر، أو خمسة، أو ستة قبل أن تطلع روحي بدقيقة واحدة، ذلك الحمار أوقعني في ورطة، تلك الوجبة لم تكن احتفالا بميلاد ابنته الصغيرة، بل كانت شيئا آخر، انتهينا من الشاحنة الثانية فغادرت، وأتت الثالثة وغادرت، ثم الرابعة، ثم رآني ذلك العامل وقد بدأت

ملابسي تتبلل، ولون وجهي يحمر شيئا فشيئا، إنه رجل ذو أدب، و إلا كان سألني في تلك اللحظة إن كنت قادرا على المواصلة، لكنه ظل صامتا، رغم أنه كان يؤدي أغلب العمل، كانت ذراعاي قد بدأتا ترتعشان فعلا، ونبض قلبي يتسارع، بحثت عن قارورة ماء فوجدتها قريبة، تأخذ الشاحنة دقيقتان فقط لتأخذ مكان أخرى، وذلك هو كل الوقت الذي نحصل عليه للراحة، لكن كانت لدينا نصف ساعة لتناول الغداء، خمس منها قضيتها في التهام قطعة خبز محشوة بالجبن، وما تبقى منها قضيته مستلقيا في الظل تحت بطن الشاحنة، أما العامل فذهب ليصلي، الصلاة... لا أذكر متى كانت آخر مرة صليت فيها، ربما لم أقربها أبدا، تذكرت شيخ المسجد حينها، لقد تحدثت إليه مرات كثيرة، هو شخص طيب، لا يعرف أبدا كيف بمقدوره أن يؤذي أحدا، ربما علي الذهاب لرؤيته في وقت قريب، قلت بصوت مسموع دون أن أشعر، عاد العامل من صلاته، ورأيت السيد أحمد يتبول خلف غرفة المكتب، هو أيضا لا يقرب الصلاة إلا نادرا، رغم أنه يتحدث عن الله في أغلب الأوقات التي يكون فيها سعيدا، أو حين يشتم أحدا، فإنه يذكره.

عملنا حتى وقت متأخر، أي حتى ملّت الشمس من مراقبتنا وقررت أن تتركنا وشأننا وتذهب، لأننا بدونا وكأننا لن ننتهي أبدا، أكاد أجزم أن عظامي

قد تضاعف عددها، وأحسست بأخرى تخرج من مكانها، قبل أن ننتهي من آخر شاحنة سألني ذلك العامل إن كنت سأعود في اليوم التالي فأجبته قائلا :

- " يؤسفني حقا أن أقول لا، لأنني بالفعل لدي عمل جيد، ولكنني اليوم حصلت على يوم عطلة، وقد ترجاني السيد أحمد كثيرا كي آتي إلى هنا، لقد أشعرني وكأنه في ورطة، ولم أرد أن تفسد علاقتنا الممتدة، بحرفين فقط، لم أكن لأرد طلبه، لكنني قد آتي في وقت آخر، رغم أنني متأكد من أنني لن أكون في حاجة إلى هذه النقود القليلة، أعني أنني لن أعود راغبا في العمل بغية تحصيل الأجر، بل لأغير جو العمل فقط، فأنا بالفعل كما أخبرتك أمتلك عملا..."

وحدث ما أردته تماما، فقد سألني الرجل عن طبيعة عملي، وكنت أبحث عن سبب حتى لا أرفع تلك المجرفة مرة أخرى، فتركتها تسقط بين قدماي ورحت التقط أنفاسي لأشرح له طبيعة عملي، وأخذت أشكل بيداي حركات ظننتها ستوصل له الفكرة :

- " إنه هكذا... " وحركت يدي كأنما أكتب بقلم :" و... " حركتها كأنما أضغط أزرار آلة حاسبة :" تعرف، جرد، جرد ومحاسبة... و... " تركت ذراع المجرفة يستند على بطني وعقدت يداي خلف عنقي كأنما أستند على ظهر

مقعد مكتب :" راحة، كله راحة... لا أذكر أنني قد سالت مني قطرة عرق واحدة خلال سنوات عملي".

كان العامل لا يزال منهمكا بتحميل الشاحنة حتى اللحظة، وكان كلما رفع مجرفة إلا وتطايرت حبات العرق من ذراعيه ووجهه، توقف فجأة ووضع إبهامه علي جانب من أنفه وشخر شخرة أخرج بها نخامة متربة بحجم صرصور من فتحة أنفه الأخرى.

- " جيد، أحسدك على هذا... فأنت تعيش حياة كريمة إذن ". !!

- " بل حياة كريهة..."قلت في نفسي، وأجبته بعدها بصوت متقطع :

- " يمكنك أن تفعل ذلك، لأنني أنا أيضا أحسد رئيسي في العمل، كلٌّ يحسد على قدر أحلامه..."

لم يتحدث معي بعدها، وكأنما أغضبه كلامي، ورأيته يجدّ في العمل مثلما أنه جاء لتوه، فيما لم يكن بمقدوري أنا أن أرفع المجرفة فوق مستوى ركبتي، طاقتي كانت قد نفدت عن آخرها، كان جسمي يرتعش بشدة، ومن حسن حظي أن الشاحنة الأخيرة كانت صغيرة ولذلك تمكن من إنهائها بنفسه، لقد ألقى بالمجرفة بعد ذلك واستدار نحوي وسألني بلطف بالغ :

- " قلت بأنك لن تأتي غدا؟."

- " سيغضب رئيسي إن تغيبت عن العمل ليوم آخر..."

- " حسنا، سأحضر صديقا لي إذن، ربما أراك في يوم ما، حينما تحصل على يوم عطلة آخر..."

- " بالطبع، لن أقضيها في أي مكان آخر، لقد أحببت هذه الأتربة، وهذا الوسخ، وهذا العطش، وهذه الشمس، الأمر ممتع، لقد أحببت المجرفة، وغداء منتصف النهار، لقد أحببته، من الجيد للمرء الذي يملك مرتبا أن يعمل بأجر يوم من وقت لآخر..."

حسنا، لست متأكدا من أنه قد اكتشف كم كنت أكذب، لكني إذا سُئلت فسوف أقول نعم، لكنه رجل مؤدب، لا يملك طريقة يؤذي بها مشاعر الآخرين، مثل شيخ المسجد تماما، هذا ما أعتقده.

شخر محرك الشاحنة وودعت العامل وتركته يقف هنالك ملطخا بأرطال من الأتربة، طبقة أخرى طلعت فوق جلده، لكنني نظرت بعد ذلك في المرآة المثبتة فرأيت وجهي على حقيقته، ذلك أنني غسلته في دلو وجدته خلف مكتب السيد أحمد، علمت بعد ذلك أنه كان يستعمله عندما يذهب إلى الخلاء في العادة.

حدثني قائلا قبل أن تقلع بنا الشاحنة :

- " هل أعجبك العمل؟."

- " كثيرا، أجل".

- " جيد، وهكذا سأحبك أكثر يا سيد جواد، لأنني أفكر في أن أمر عليك كل يوم خلال الأيام القليلة القادمة؟."

- " حقا؟"

- " أجل..."

- " بالطبع ستفعل، هذا إن وجدتني... " قلت في نفسي، لكنني عدت بعد ذلك وقلت له :

- " آمل أن طفلتك جاءت بحال جيدة ". !!

- " هاه، نعم... ستة أرطال ونصف، ماذا يمكن أن يكون أفضل من هذا؟."

- " لابد وأنك تحبها كثيرا، بالتأكيد أنت تفعل، فلا يمكن لأحد أن يُشكّك في مقدار حب رجل لابنته التي جاءت في ستة أرطال ونصف لا تزيد ولا تنقص، أليس كذلك؟."

ونظر نحوي للحظة وعاد يقود الشاحنة.

- " لا يمكن لأحد أن يشك في هذا".

الواقع أنني إنما أردت أن أسأله عما شعر به ومازال يشعر به حتى اللحظة، لكنني لم أعرف قط كيف ألفظ هذا السؤال دون أن أشعر بأنني قد حسدته، لن أكذب إن قلت أنني وفي مرات كثيرة تمنيت أن لو كنت أمتلك طفلة صغيرة بحجم ستة أرطال ونصف، لها عينان كبيرتان مثل الشمس وفم صغير مثل القمر، وخد سمين مثل الجبل، ويدان رطبتان مثل السحب، وصوت رخيم مثل زخات المطر، وبكية تبث السعادة مثل رعد في مساء يوم صيف مقفر، لقد قطعت شوطا كبيرا من الطريق وأنا أصنع هذه الطفلة في مخيلتي، ثم أتى صوت المزمار ومزقها.

قال السيد أحمد وهو يلتف في منعرج نحو المدينة:

- " مرّ فصل الشتاء دون هطول الكثير المطر، الأرض جافة، والنبات لم يشرب الماء الذي يحتاجه، يبدو أن الصيف سيكون عسيرا على الجميع هذه السنة".

- " ليس على الجميع..."

- " ماذا تعني؟."

- " أعني أن صخرة في رأس جبل لن يؤذيها حر الصيف أكثر مما يؤذي زهرة صغيرة تنمو وسط غابة أشجار كثيفة..."

- " صحيح، معك حق، ولكن...."

وهكذا استمر يلغط بالكلام حتى وصلنا إلى ساحة المدينة وهنالك ألقى بي على الرصيف وغادر دون أن يكون قد ظهر عليه أنه كان يعود من العمل، أما أنا فكنت مثقلا بالتراب من رأسي حتى أخمص قدمي، عددت نقودي التي جنيتها مرة ونصف مرة ثم دسستها في قبضة يدي وسرت نحو جدار الفقراء، كانت الجدران والأزقة تظلم من حولي، قليل فقط من الناس كانوا لا يزالون يتجولون بالخارج، لكن ولمّا كان أولئك البشر اللذين قد أهتم لمظهري أمامهم لا يتركون مساكنهم في مثل الوقت فقد سرت دون أي خجل، بل إنني مشيت مثل حصان وسط حقل اخضر، لا أتلفت إلى صوت إلا وأنا موقن من أنه ليس شيئا يصلح أكله، مثل وثبة أرنب بري أو زقزقة طائر.

11

يقع جدار المجانين بالقرب من مكتب البريد مباشرة حيث تنمو مكينة الصراف الآلي على جداره الخارجي على بعد خمسين خطوة، هنالك يقضي الفقراء ليلهم ونهارهم، ذهبت عند أول واحد منهم وجلست بجانبه، سألته إن كان قد رأى عليّ فلم يجبني، كان منهمكا في تقشير قطعة خبز باردة، سألته مرة أخرى :

- " ينبغي أن تخبرني عن مكانه، فقد سألتك، وقد سمعتني، وأنا تكلمت لمرتين متتاليتين، وهما أكثر من مرة، وقد سمعتني لمرتين متتاليتين وهما أكثر من مرة، و إن كان علي أن أتحدث لمرة أخري فسأفعل، وسيكون عليك أن تسمعني مرة أخرى، وهكذا... لا يزال الليل في أوله، والنهار بعيد جدا عن هنا، وسوف تكون في حاجة إلى النوم، لكي تقدر غدا صباحا علي أن تنهض وتفتح فكيك وترفع يدك وتقف علي قدم واحدة هنالك بجانب الصراف الآلي، وأنا سأكون هنا بعد ساعة، وسوف تسمعني خلال هذا الوقت وأنا أتحدث، وأنا كما ترى متسخ أكثر منك، ولذلك لن تهزمني بصمتك، فخير لك أن تتحدث..."

والآن رفع المتسول يده المتسخة بصلصة المايونيز وأشار نحو فج في الظلام دون أن ينظر نحوه :

- " لقد ذهب للتغوط..."

بعد مرور دقيقتين جاء عليّ يسحب قدميه على الأرض بينا يمسك بكلتا يديه عنق سرواله إلى خصره حتى لا يسقط، جاء وتهالك على السور مثلنا، ثم عدل قبعته على رأسه وعطس عطستين ثم قال وهو يضع رسغيه علي ركبتيه المرتفعتين :

- " هل أنت من سرق مني خيط سروالي؟."

قلت أجيبه :

- " سيكون من حسن الحديث لو أنك لا تنعتني بالسارق، فأنا كما ترى قد جئت لأعيد إليك أمانتك، صحيح أنني أخذته منك حيث كنت نائما ولم تشعر، لكنّ الأشياء التي تؤخذ ثم تعاد بملء الإرادة إلى أصحابها لا يصح أن نسميها سرقة، بل إعارة، وأنا قد استعرت منك خيط سروالك، ولسوف ترى لعد لحظة بأن نيتي كانت طيبة، انظر..."

ثم إنني ناولته خيط سرواله ثم أخرجت من جيبي قطعة نقدية من فئة الخمسة دنانير ووضعتها على راحة يدي وجعلتها تحت الضوء حيث يقدر على رؤيتها، فقال يسألني :

- " ما هذا؟."

وسحبت يده وسكبت القطعة النقدية فيها دون أن أترك له الفرصة لرفضها.

- " خذها فهي لقاء كرائي لهذا الخيط..."

ودس عليّ قطعة النقود في جيب سرواله وعاد يقضم طعامه دون أن ينبس ببنت شفه، لكنني كان لي شأن آخر معه فقلت له :

- " لدي عرض لك... عرض عمل".

لم يبدو أنه كان مهتما.

- " أنا بحاجة لبعض الحشرات يا صديقي، ولو أنك تجمع لي بعضها فسوف أدفع لك لقائها، لقد ابتعت لنفسي حيوانا ضخم الجثة، وليس في مقدوري أن أطعمه اللحم كما تعلم، ولذلك خطرت لي هذه الفكرة،، إن الحشرات تكثر هنا، وأنت بلا عمل، وأنا أملك المال لأوظف شخصا يؤدي هذا العمل، ولم أرد أن تذهب نقودي إلى شخص لا أعرفه..."

- " هل تريدها حية أم ميتة؟."

- " الحشرات التي تتحرك يصعب أكلها، وأنا لم أبتع ضفدعا يطلق لسانه، بل حيوانا يأخذ وقتا حتى في تحريك عينيه إلى الجهة الأخرى، رغم أنه حيوان شرس، ولكنني أعتقد أن أمعاء الحشرات قد تساعد على تهدئته وتحسين طباعه، و إلا فإذا مررت من أمامك في يوم ما ورأسي ليس بين كتفاي أو كان بطني ليس في مكانه الصحيح فأعلم بأنّها كانت فرضية خاطئة، وحينها سأفكر في طريقة أتمكن خلالها من شراء أرطال كثيرة من اللحم لأجله، أو قد أفكر في بيعه حتى إن أمكن، لكن ما يهمني الآن هو أن أجرب، ولا ضير في تجربة الأشياء كما تعلم، ما دامت لا تضر أحدا غير صاحبها..."

وهكذا قام عليّ من فوره واقفا وسار في الظلام نحو حاوية القمامة واختفى هنالك لبضعة دقائق، لم نكن نسمع صوتا قبل هذا، لكن منذ ذهب عليّ إلى هنالك ضج المكان بأزيز الذباب ولم تهدأ إلا بعدما ظهر يعود مرة أخرى بنظرته النعسة، فجاء نحوي وقد كوم قبضته عند بطنه ثم فتح يده كاشفا عن كومة من الذباب والحشرات الميتة فقال لي:

- " خذها، لا أعرف ضفدعا بإمكانه التهام كل هذا الكم في ليلة واحدة".

- " لا، أقسم أنني لم أبتع ضفدعا... لقد أخبرتك".

- " لا أدري بشأن ذلك، لكن عليك أن تدفع لي مقابل هذا العمل..."

تركت المتسولين عند الجدار وغادرت المكان عائدا نحو النزل، في الطريق نظرت إلى كومة الذباب في يدي، وفكرت في أنها كانت صفقة رابحة، لقد اكتريت خيطا لليلتين وحصلت على طعام للعناكب مقابل عشرة دنانير فقط، ربما لو كان ثمة شخص عاقل بما يكفي (أي لا يكون ثمة اعوجاج في طريقة تفكيره) وكان يراقبني في تلك اللحظة حيث كنت أجري هذه الصفقة لربما ظن أنني قمت بخداع ذلك المتسول، لكن الواقع أن ما فعلته كان عين الصواب حتى، إذ أنّ عليّ وهو بذلك الدماغ المحترق المحمول على عنقه المتسخة، ما كان له أن يفرق بين قطعة ذهب وضعت في يده وبين أخرى مصنوعة من الحديد المعاد تصنيعه، إنه في كلتا الحالتين كان سيضعها تحت فراشه حتى يأخذها أصحابه عندما يقبض الله روحه في ليلة ممطرة.

أنا الآن أسير في شوارع خالية بمفردي، ولهذا سوف أتحدث قليلا عن هذا الرجل ريثما أصل إلى النزل، الآن لطالما كانت العائلة الجزائرية لا تخلو من علة، إذ لابد وأنك لو فتحت أي ثلاجة في أي منزل لوجدت ما لا يقل عن رطل من الأدوية بداخلها، إن لم تكن للأب فهي للأم، و إن لم تكن لأحدهما

فهي تخص ابنهما، و إلا فهي للجد أو الجدة، وعائلة عليّ هي خير مثال على هذا، كان لديه أربعة أخوة، ثلاثة ذكور وفتاة وحيدة، لكنه فقد شقيقه الأصغر منذ سنوات بعد أن أقعده المرض على كرسي متحرك لفترة طويلة، فيما أصيب شقيقه الآخر بالجنون هو الآخر، لكنه ارتحل هائما إلى بلدة أخرى، فيما بقي شقيقه الثالث رفقة شقيقته ووالدتهم يصارعون الحياة لوحدهم، يتحدث الناس عنهم أحيانا فيذكرون مأساة العائلة التي ابتدأت بموت الأب بعد أن مرض بالسرطان منذ سنوات بعيدة، يقولون أن كل ما أصابهم كان بفعل ساحرة حقيرة، هذه المدينة تقطنها ساحرتان كما يشاع بين الألسن، لكنني لم أرى حتى اللحظة ما يثبت ذلك، لا أدري السبب الحقيقي وراء جنون كل أولئك الرجال لكنني لن أضع السحر (وهو شيء لا أؤمن به في العادة) كتفسير للأمر ما دمت لم أطلع بعد على دليل يتقبله عقلي ويفهمه مثلما يفهم قيمة الأوراق النقدية.

وصلت إلى النزل بنحو التاسعة، أملت كثيرا ألا ألاقي مريم تحت أي مصادفة، لكنني رأيت والدها جالسا على كرسي مكتبه وكان يوشك على الرحيل في هذه اللحظة، لكنه ألقى نحوي نظرة سريعة وعاد إلى جريدته التي

سيكون قد قرأها لثمانين مرة منذ الصباح الباكر، صعدت السلالم بخطوات ثقيلة ورحت أسحب قدماي المتعبتان في الرواق الضيق حتى دلفت إلى شقتي، من حسن حظي أنني وصلت في الوقت المناسب، فقد كان الماء لا يزال يصب من الصنبور، أسرعت فأخذت حماما باردا في المرحاض وبدلت ملابسي ثم رجعت نحو السلالم فنزلتها مسرعا.

كان البخيل قد اختفى من مكتبه، أما أنا فبقيت واقفا لربع ساعة عند باب شقته، وأثناء ذلك شتمت نفسي بطريقة عنيفة، لقد غادرت غرفتي دون أن أتعطر، دون أن أنظر في عيني القطة، ودون أن أتفقد العناكب، لكنني وقفت محملا بما قالته لي بالأمس، إنها لا تأمل شيئا في هذه الأيام أكثر من أن يعود البيانو خاصتها للعمل.

جمعت رباطة جأشي وأخذت نفسا عميقا وضربت بمفصل أصبعي الأوسط على الباب الخشبي ثلاث مرات ثم عدت إلى الوراء بخطوتين واتخذت هيئة بائع البيتزا الذي يستعد لتسليم طلبية رجل عجوز عاش في عزلة.

صدر أزيز قصير وراح الباب يتحرك من مكانه، وظهرت يدها الناعمة تسقط على حافة الباب من وسطها، ابتلعت ريقي قبل أن أرى وجهها، ثم

رأيت شمسا تشرق من خلف ذلك الباب وقد كان الليل في الخارج، ووجدتني أبستم، غادرني وجه موزع الطلبات مثل شيطان رأته الملائكة، أومأت لي مريم بابتسامة كي أتفضل إلى الداخل، وتبعتها بعد أن سألتها إن كنت سأتسبب في أي إزعاج لها أو للسيد والدها وقد حضرت في وقت متأخر، لكنها نفت أي إمكانية لحدوث ذلك، بل رحبت بي وكأنني جئت في الصباح الباكر، ودلفت أسبقها بخطوات مختلس، حاولت ألا أصدر صوتا حتى وجدتني أقف وسط غرفة الضيوف الواسعة، سمعتها تقول شيئا بعد ذلك لكنني حينما نظرت خلفي لم تكن موجودة، كانت الإنارة خافتة، لقد اختار البخيل أن يبتاع مصابيح اقتصادية قدر ما أمكن، كانت الستارة مسدلة على النافذة، ولذلك تجمع كل الضوء في الداخل ولم يتسرب منه شيء نحو الخارج، الآن سرت نحو الخزانة الكبيرة التي تخفي جدارا كاملا خلف ظهرها، الكثير من الأواني القديمة، ربما هي تفوقني عمرا، ورغم ذلك لم يتم استخدامها أبدا، توجد صينية نحاسية تقف خلف الزجاج وبجوارها صورة رمادية لامرأة عجوز تكشف شعرها، سمعت وقع خطوات فملت نحو البيانو وكان يحتل مكانه عند الجدار الآخر، جاءت مريم تحمل سينية زجاجية عليها

كأس عصير بارد فوضعته على المائدة الصغيرة التي تتوسط الغرفة ثم عادت نحوي.

- " ماذا أحضر لك، إنني لا أذكر الأدوات التي استعملتها آخرة مرة لإصلاحه..."

- " مفك فرنسي، ومطرقة صغيرة إن استطعت إيجادها، و إلا فسأعود لأعلى لأحضر واحدة..."

- " لا، أعتقد أنني أعرف أين يحتفظ والدي بخردواته..."

غابت مريم في غرفة أخرى، فذهبت لأشرب عصير البرتقال البارد، كان لذيذا جدا، ولم أعرف إن كان علي إفراغ الكأس بأكمله، فلقد ظننت أن ذلك سيكون تصرفا غير لائق، رغم أنني أردت أن أفعل ذلك بشدة، أعرف أن من يعيشون في الأعلى أبدا لا ينهون مشروباتهم بالكامل، لسبب لا أعرفه، نظرت خلفي بعدها، ورأيتها تأتي حاملة مفكا فرنسيا ومطرقة في يديها، ونظرت إلى البيانو وأنا أحمل عنها الأداتين متحاشيا النظر في عينيها مباشرة ثم قلت سائلا :

- " هل لدى والدك سلاح في المنزل؟."

- " لا، لديه بندقية قديمة، لكن لم ينكسر مقبضها... لماذا تسأل؟."

وقلت متململا :

- " أعتقد أن المطرقة أكبر مما يلزم، الآن سيكون الضجيج عاليا، وسوف يشعر والدك بضيق شديد حينما تنفجر طبلتا أذنه، وحينها سيأتي راكضا نحوي ليصوب بندقيته التي انكسر مقبضها إلى رأسي..."

ذهبت مريم بعد ذلك فجلست علي الأريكة وأسقطت وجهها بين يديها وظلت تطالعني بعينين متأملتين.

قالت بعد فترة من الزمن، وكنت أنا قد غمست رأسي في بطن البيانو أبحث في أحشاءه :

- " لا تقلق، إن والدي الآن يتناول عشاءه في المطبخ، وسوف يخلد إلى النوم بعد ذلك، و إذا انفجر هذا الجزء من المنزل فهو لن يأتي..."

وتوقفتُ عن العمل لأسألها :

- " هل قلت الآن شيئا معكوسا؟."

- " أجل..."

لقد أراحني كلامها إلى درجة جعلتني لا أصدقه، والآن بعدما تأكدت من أنّ والدها لن يأتي لرؤيتي فقد رحت أعمل بجد أكبر، فككت نصف المطارق وأعدت تركيبها، وجربت المخمدات، لكن فجأة انتبهت إلى أمر مريع حقا،

سروالي، إنّ تزريره خاطئ، لقد أدخلت أول زر في العروة الثانية وهكذا انطلق باقي الصف يعوج حتى آخره، هل يمكن أن تكون مريم قد لاحظت الأمر هي أيضا؟ سيكون الأمر مريعا لو أنها فعلت، فكرت في أن أرسلها خارج الغرفة مرة أخرى حتى أصلح الأمر، لكن تذكرت أنه ينبغي علي أن أفلت الحزام أيضا من أجل أن أفعل ذلك، ثم إنني لم أستطع أن أفكر في أي شيء قد أرسلها لجلبه ويكون من شأنه أن يوفر لي كل الوقت الذي أحتاجه، لقد أغلقت ظهر البيانو وأنا أشعر بخجل شديد من أن أستدير نحوها.

جاءت بعد ذلك وجلست على المقعد أمام البيانو وجعلت تضع أناملها على لوحة المفاتيح ونظرت في أوراق الموسيقى وراحت تعزف، غريبة هي هذه الطفلة، لكن لسبب ما كنت لا أجد أي انزعاج في عزفها، بل إنني كنت أستسيغه، رغم أنها كانت تقرأ الأوراق بداية من اليمين، لقد وقفت مثل الفتى المؤدب بجانبها قرابة الربع ساعة، أعتقد أنها نسيت نفسها، فعندما تحدثت إليها للمرة الرابعة توقفت عن العزف فجأة وتيبست أناملها فوق لوحة المفاتيح لنصف دقيقة.

لمحت والدها وهو يعبر الرواق مارا نحو غرفته وقد ألقى نحونا نظرة سريعة ومضى في طريقه، أظنه شتمني في داخله، إنه لا يتحمل أن يقترب منه أي إنسان في هذا العالم عدا ابنته، أو أيما امرئ أراد أن يدفع له مالا، انسحبنا بعد ذلك نحو الأريكة، واضطررت لأن أجلس كجنتلمان هذه المرة، فجلست أشابك يداي مع بعضهما فوق حجري حتى لا ينكشف العطب في سروالي، و إن كنت متأكدا من أنها ما كانت لتأبه لذلك، لكن حتى أسفليّ مثلي لابد وأن يمتلك بعض الكرامة، كانت مريم لا ترفع عينيها عن الأرضية، لقد أرادت أن تشكرني، ولو أنها ابتسمت فقط لكان ذلك كافيا، لكنها كانت تبحث عن الكلمات في تلك اللحظة، وأنا نظرت في أرجاء الغرفة لا أدري عما أبحث.

- " هل تكرهين الرجال اللذين يتأخرون عن الموعد؟ لابد من أنك تكرهينهم".

قُلت ذلك علي حين غرة، وأنا متأكد من أنّ سؤالي قد فاجئها، لكنني تأكدت من أن أخفض رأسي وأنا أوجه لها هذا السؤال المحير، وبينما رحت أرفع عيناي بصعوبة نحوها وكأنني أنظر من تحت الأرض جاءني جوابها باردا ولذيذا مثل رشفة من عصير البرتقال :

- " يتعلق الأمر بمن قد تأخر..."

- " أجل، إذ أنّ رجلا يسكن جبال التبت وقد راوغته تلك الماعز الصغيرة التي لا تكف عن القفز هنا وهنالك بحثا عن اللهو قبل أن تنزلق قدمها وتهوي في منحدر ويضطر هو للنزول إليها فيتأخر عن العودة إلي بيته حتى يحل الظلام لا يمكن بحال من الأحوال أن تقلقي بشأنه لأنه بعيد جدا ولا يعنيك أمره..."

- " ذلك خطأ تماما..."

ومرت بضع دقائق أخرى والصمت يحلق حولنا، وكنت أسترق النظر إلى عينيها بينما أفكر في أنه قد بقي شيء واحد ينبغي علي معرفته قبل أن أقرر إن كنت سأقع في حبها بالكامل، قلت بعدما التقت عيوننا أخيرا :

- " هنالك أمر أرغب كثيرا في معرفته..."

- " إنني لا أسمعك".

- " هل تظنين بأنني سارق؟ أعني هل أنت مثل الآخرين تعتقدين بأنني سرقت من الشركة؟ ".

- "لا..."

خلال عشر سنوات حاولت إقناع نفسي بأنني لا يمكن بحال من الأحوال أن أحب الناس مرة أخرى، لأنهم عدوني شريرا دونما سبب، لكن في بعض

الأحيان كنت أنسى ذلك، فأجد نفسي أبتسم لمن يحدثني، لكنني كنت سرعان ما أتوقف عن ذلك داخليا، حتى يبتعد عني ذلك الشخص فأُغير ملامحي المخزية، أما الآن فأقر بأنني أستطيع أن أحب النساء عامة وهذه الفتاة خاصة مثلما يحب الثور العلف والماء والبقرة.

استمر الوقت في الذهاب، واستمر الظلام في المجيء بذات السرعة، واستمر حديثنا الذي لم يكن يأخذا مسارا واحدا، والحق أن هذا ما يحدث عندما تجلس جنبا إلى جنب مع شخص توليه الكثير من الاهتمام، إنك ترتبك مثل حلزون ولا تقدر علي خلق حديث واحد مطول، إنني أنظر إلى أنفها ثم إلى رموش عينيها، ثم أنتبه أخيرا إلى أنه لا يجوز السكون مطولا هكذا.

- " أعتقد أنه علي المغادرة الآن، لقد تأخر الوقت".

- " أجل، سيكون من اللطيف أن ترحل بسرعة..."

- " سأود هذا، لكن قد لا يتحمل والدك بقائي هنا أكثر من هذا، وأنا متأكد من أنه الآن يرقد في فراشه وهو يرغي مثل الثور الغاضب، وقد يقف على قدميه في أي لحظة... إنك لا تدرين كم تؤلم الرصاصات عندما تشق البطن".

تركت مريم تعود إلي الداخل، وما إن أغلقت باب الشقة حتى أدركت بأن الليل قد جن فعلا، فصعدت السلالم بنشوة، ترى كم من رجل جالس فتاة جميلة وهو لا يملك قطعة نقدية واحدة في جيبه.

أدخلت المفتاح في مكانه، وركلت الباب بضربة لطيفة واحدة، أنرت الغرفة وذهبت عند القطة مباشرة.

ماءت القطة مطولا، لكنني كنت في حاجة إلى عناق كهذا، عانقتها حتى تقطعت أنفاسها ثم أطلقت سراحها بعد دقيقة فذهبت إلى الزاوية وظلت تسعل، أنا متأكد من أنها لا تستطيع أن تكرهني، ثم إنني تذكرت زوجتي المسكينة، فلم نعانق بعضنا منذ أشهر، لذلك ذهبت وأنزلتها من على الباب فوضعت كميها على كتفاي وضممتها برفق حتى لا تنكمش، لقد خنتها مرتين في هذا المساء، مرة عندما نظرت بحب إلى رموش مريم ومرة عندما عانقت القطة، لكنها لا تغضب، لا تملك رأسا ولا تراني حينما أفعل أشياء سيئة، لأنها في المقابل لم يحدث أن طبخت لي طعاما ولا غسلت لي ثوبا، ولذلك نسامح بعضنا بسبب التقصير المتبادل، مِلت معها على السرير مثل شجرة قطعتها فأس حطاب ونمنا متعانقين حتى طلع ضوء النهار علينا.

12

فتحت عيناي في لحظة ما وبقيت أتأمل السقف لبضعة دقائق حتى انسحب النعاس عنهما، وحينما رفعت ظهري من الفراش رأيت نصف جسد زوجتي ملقى على الأرض ونصفه الآخر معلق بلحاف السرير عند قدمي، فقمت وعلقتها على الباب وبحثت عن القطة فوجدتها تتأمل علبة العناكب فوق المنضدة.

يشير الوقت إلى التاسعة، والشمس تسطع في الخارج، كان ينبغي علي الذهاب إلى العمل، لكن لم يكن قد بقي لدي الكثير من الماء، فلم أملأ الخزان في الليلة الماضية لأنني أسرعت إلى عند مريم مباشرة بعدما أخذت حماما، وها أنا الآن لا أجد ما أقضي به حاجتي، ترغب القطة في تناول شيء ما، أعرف أنه قد بقي بعض الحليب في الثلاجة ويمكننا تقاسمه، ألقيت نظرة سريعة على العناكب وقد بدأت بالفعل في نسج شباكها.

بالرغم من أن كمية كبيرة من الطعام قد وصلتها، لا أدري كم سيستغرق الأمر، لا أدري إن كانت سنة واحدة ستكفي، لكن بما أنني كنت أعمل عملا يقتضي مني أن أحسب أشياء لم نكن نملكها بعد فأعتقد بأنني قد أعددت

للأمر جيدا، ففي نهاية السنة ينبغي أن يكون لدي ثمانون أو تسعون عنكبوتا، أو ثلاث مائة، لا أدري، هذان الذكران تعيسان جدا، لن يعيش أحدهما لأكثر من ثلاثة أشهر، لكن الأنثى ستبقى حتى آخر السنة، ستكون شاهدة على ما سوف يحدث، رفقة ثلاث مائة من أحفادها.

أعرف أنني لست الوحيد من بين كل هؤلاء الناس اللذين يسيرون في الشارع تحت هذا الحر من يحمل رطلا من الفضلات في بطنه، غير أنني ربما أكون الوحيد الذي يجد صعوبة في تصريفها، أعرف مكانا مناسبا يحتوي على الماء، لكنه يتطلب مني أن أدفع أربعين دينارا، مبلغ يكفي لشراء أربعة أرغفة، وهذه مفارقة عجيبة، يتطلب التخلص من رغيف خبز في هذا البلد أربعة أضعاف مما يتطلبه الحصول عليه، حاولت أن أصل إلى المحل بسرعة، يعرف السيد خليل أنني لا أتأخر بغير سبب، ولذلك قد يشرع أحيانا في تحضير المكان مسبقا، ووجدته يقوم بجر صندوق البطاطس إلى الخارج، لكنني انتظرت حتى عاد إلى الداخل فأسرعت خلف الصندوق وشرعت في تقشيرها وتقطيعها بينا تتقطع أمعائي، هذا ما يمكن للفقر أن يفعله بالمرء، أن يحرمه من أوسخ حقوقه، لقد ظل المغص يعظم في بطني حتى أحسست أنه سينبعج

في أي لحظة، بعد ساعة كنت قد انتهيت من عملي فلملمت الأشياء في مكانها وأسرعت نحو المسجد.

مشيت بخطوات غير منتظمة، مشمئزا يقتلني الغثيان، ذلك أن الحمامات في المسجد تشبه مكان تبرز البقر.

لثمانية عشرة دقيقة بعد ذلك، سرت منكسا، تماما مثل الديك مايك، كان رأسي يتدلى من أمام عنقي، ولو رآني راءٍ من الخلف وكان يعرف الديك مايك فإذن لصدق قصته مباشرة بعد ذلك، الآن كان عقلي قد بدأ يفقد حكمته، وراحت مشاعري تذبل، لا أعرف الوقت الذي تأتيني فيه دورتي الشهرية، فلم أقم بتحديده حتى اللحظة، لكنني أعرفها عندما تأتي، إن كل طموح كان في جيب رأسي في تلك اللحظة سيخرج منه متسلقا جداره مثل عنكبوت مسرع، وحينها لا يمكن حتى لقطعة جبن باردة أن تسعدني، ولا حتى بقرة كاملة مطبوخة، لكن من حسن حظي أنه لم يكن علي الانتظار طويلا، فقد كان الناس يأتون من الخلف بعد وقت قصير جدا.

أخذت زقاقا قريبا ودرت حول المسجد ووقفت غير بعيد أنتظر خروج المصلين حتى غادر آخر واحد منهم ثم دخلت إلى الساحة وجلست على كرسي خشبي لبضع لحظات حتى ظهر شيخ المسجد.

وأخيرا ها أنا ذا أجلس مع رجل أقدره، إن الشيخ عبد العليم لديه لحية بيضاء طويلة، وهو يعرف أن لديه لحية بيضاء طويلة، لكنه لا يستنقص منها شيئا، إنني أحسدها فهي تتعلق بذقنه دونما خوف أو تردد، هي تعلم أنه لن يمسها بسوء أبدا، ولن يُسقطها... الآن من أين سأبدأ، كنت قد أعددت قائمة بأسئلة عن الدين والدنيا، لكن ذلك العنكبوت الذي هرب من رأسي قبل لحظة قد ذهب بغير رجعة، أعرف أنه يدرك ما سوف أقوله، تهت في ذلك الفراغ قريبا من لحيته، فجأة سألني ولم يحدث قط أن سألني السؤال الأول ولم يكن وجهه موشحا بابتسامة.

- " ما بك يا سيد جواد، تبدو متعبا هذا اليوم؟"

" ـهل حدث قط وأن أتيت إليك وأنا قادر على الضحك؟"

- " في الواقع لا أعلم، فلم ألقي أمامك أبدا أي نكتة".

- " وأنا لم أفعل، لكنك تستقبلني دوما بابتسامة".

- " لا يمكنني أن فعل غير هذا".

يمكنك أن ترى صخورا تنبت لها أظافر، لكنك لن ترى أبدا أصابع شيخ المسجد بشكل غير لائق، ويمكنك ربما أن تضجر من رائحة غيمة، لكنك أبدا لن تشتكي من عطر ملابسه، لقد قابلته ربما لعشرين أو مليون مرة،

وطرحت عليه عشرون أو مليون سؤال ولم يتذمر مني يوما، رغم أنني متأكد من تكراري لبعضها مرات عدة، هو يعرف أن حالي تشبه الدجاجة التي ترغب في قطع الطريق ولكنها لا تفعل، ثمة قطعة ناقصة في هذه العملية، هو يدرك تماما بأنني خائف، خائف من الجانب الآخر، وهذا شيء أنا نفسي لا أفهمه، و إذا أردت شرحه فسأقول بأنني بت أخاف من السعادة، أجل... إذ كيف لرجل بمقدوره أن يركب حافلة ليلية ويغادر المدينة التي نُبذ فيها نحو مدينة أخرى حيث يجهل الجميع أمره فيشرع في تأسيس حياته من البداية فلا يضطر بعدها لأن يخيط لنفسه زوجة، ألا يقوم بذلك؟.

يعرف كلانا أيضا أن الدين يجلب سعادة النفس مثلما يجلب الغيم سعادة الزرع، هو رجل متدين، أما أنا فلا أعرف من الدين إلى اسمه، فإذن لديه شمس في صدره، بينما أملك القمر، الآن ما الذي يمنعني من الحصول على شمسي الخاصة، هذا ما أحاول معرفته، يخبرني الشيخ في كل مرة قصصا عن أناس كسبوا شموسا حتى بعدما انطفأت أقمارهم، بعضهم كان فقيرا مثلي أيضا، بعضهم كان أشد فقرا، بعضهم نبذه أهله، وبعضهم عاش وحيدا، بعضهم عاش مريضا، وبعضهم لم يتزوج، لكن أحدا منهم لم ينتظر أن تُحل مشكلته، وضلوا يقصدون المساجد، أنا بدوري أؤمن بوجود الإله، ولن أعارض أحدا في ذلك،

لكن مشكلتي مع بطني تحديدا. إنها تعيقني عن التفكير بوضوح وهي خاوية.

- " انظر يا أخي، هل أنت ناقم على حالتك، هل لو كان لك مال وفير هل كنت تعبد الله بشيء مما أمرك؟"

- " أقسم لك بأنني لا أعرف، لا أعرف إن كنت ناقما، لا يمكنني الجزم بأي شيء".

- " هل تعرف ما الذي قاله الله بشأن هذا؟"

- " لابد وأنه قال شيئا من شأنه أن يصعقني".

- "فما الذي يمنعك من أن تسلك الطريق إذن؟"

وصنعت بأصابع يدي قبضة ورحت أضرب بها صدري تباعا :

- " هنا يا شيخي، هنا... يوجد شيء ما هنا، إنه مثل ورقة ملتصقة، يهزها الرياح ولكنها لا تتدحرج، أترى ما أقوله، إنها محض ورقة ضعيفة، ولكن الرياح لا تقدر على تحريكها..."

- " ذلك هو الرّان... لكن أتدري ما الذي يقدر على تحريك ما لا تقدر الرياح على تحريكه؟ إنه الدعاء، الدعاء يا ولدي، ولو أنك أصلحت نفسك أولا ورحت تدعو الله موقنا بأنه سيضع غماما فوق رأسك الآن لما رد حاجتك".

- " الأمر وما فيه أنني بت أشعر بأنني أستمتع بعذاباتي، وبذنوبي، وبتيهي، وتشردي هذا، وبعدي عن نفسي وعن الله... بت أستمتع بجوعي، وفقري، وتذللي، ونظرة الازدراء التي يتقاذفها الناس نحوي كلما مررت بجانبهم".

- " ليتك لم تقل هذا الذي قلته".

كانت عيناي تدمعان في هذه اللحظة، فلقد شعرت كم كنت صادقا فيما قلته، وسرت قشعريرة في جسدي فعدت أسأله :

- " هل تصدق ببراءتي؟"

- " لقد سبق وأخبرتك مرارا بأنني أصدقك".

- " أجل، لكن يحدث أن أنسى أن أحدا لا زال يصدق ببراءتي، و إذا كنت سآتي مجددا وأسألك عن الأمر للمرة المليون فلأنني بحاجة لسماع رأيك مرة أخرى، إنني رجل ينسى حقوقه كما تعلم".

- " لكن انظر إلى نفسك الآن، إنك تبكي ولا تجرأ على أن تخطو تلك الخطوة..."

وقمت عن الكرسي وأنا أستعد للمغادرة :

- " لكنها الورقة يا شيخ عبد العليم، ربما ليس من العسير تحريكها بأصابع اليد الواحدة، لكنني لا أملك أن أُدخل يدي بداخل صدري فهو محكم الإغلاق كما تعلم... الرياح وحدها من تقدر على بلوغ الورقة وهي أضعف من أن تتمكن من تحريكها".

بقيت أمسح عيناي حتى البوابة الخارجية وحينما جفتا بشكل بارع رأيت على الجانب الآخر من الرصيف رجلا ساقطا على الأرض وقد تجمع حولة عدد من الرجال وهم يتأملونه بغرابة، سرت حتى عبرت الطريق ووقفت على رأس الرجل الطريح فصاح بي أحدهم بصوت عالٍ :

- " تراجع، ما الذي تظن أن تفعله باقترابك منه هكذا، هل أنت طبيب رئة؟ وهل كونك طبيب رئة يجعلك تتفاهم جيدا مع هذا الفيروس اللعين حتى تقترب منه هكذا؟ لكن إذا كنت ستلمسه بيدك هاتين فأخبرنا مسبقا حتى لا نكون هنا بعد ذلك".

ونظرت في وجوه الآخرين فإذا الذعر قد دب فيها وكأنني جئت أسرق أرواحهم، حتى لقد راحت أقدامهم تتراجع، لم أفهم أيا مما كان يقوله ذلك الأحمق، لكنني أردت الاطمئنان على الرجل الطريح أولا بما أن أحدا لم يكن يرغب في مساعدته. وللأمانة فإنه كان يبدو كموميياء قديمة، أي لم يكن يحسن بي أنا طبيب الرئة أن أتدخل وأحاول إسعافه، لقد كان رجلا بعمر الألف تقريبا، أطرافه ملونة بشرايين سوداء بازرة وطويلة وملتوية، رفعت يده برفق فسقطت من تلقاء نفسها، وبعد ربع ساعة كنت قد مازلت أقف وحدي قرابة ذلك الجسد، كان الناس قد ابتعدوا لما يقارب من العشرين مترا، وأتت سيارة إسعاف مسرعة وخرج منها رجلان في ثياب فضية يضعان قناعي تنفس على وجهيهما وجعلا يغلفان ذلك الجسد بغطاء الحرائق ثم حملاه إلى داخل سيارة الإسعاف وعاد أحدهما بعد ذلك بلحظة وصاح موجها سبابته نحوي :

- " اذهب إلى المتشفى، ودون أن تحتك بأي أحد، قم بإجراء الفحص حالا وإلا فقد تأخذ معك خمسين ألف شخص إلى المقبرة خلال أسبوعين فقط..."

اللعنة، عما يتحدث، هل أنا هتلر، أنا لن أذهب برفقة خمسين ألف شخص إلى المقبرة، حتى لن أرسلهم لوحدهم، أنا لن أفعل هذا، إنني في حياتي لم

أزهق روح نبتة، فما الذي يقوله هذا الرجل، هل يريد أن يورطني في أمر ما، نظرت حولي مرة أخرى فإذا بالشارع قد صار خاليا، كما أن سيارة الإسعاف غادرت في تلك اللحظة، ذهبت مسرعة وهي تعوي وتزمر، ووقفت أفكر فيما حدث، لكنني وصلت بعد دقيقتين إلى نتيجة، علي أن أتناول شيئا فبطني كانت تقرصني من الداخل.

13

بعد ساعات من التجوال بدأ الظلام يهبط تدريجيا فوق رأسي، وأصبح الهواء أكثر برودة، فقررت العودة إلى النزل، ربما كان الوقت عند السابعة عندما عبرت المدخل، ولم يكن البخيل موجودا، كان مكتبه فارغا إلا من جريدة قديمة مكتوبة بالفرنسية، في الواقع لست متأكدا من أنني قد مررت بأي رجل منذ السادسة، لا أدري، فقد كنت شارد الذهن بحيث لم يكن بمقدوري أن أتذكر ما رأيته قبل ثانية واحدة.

نزعت حذائي وجوربي النتنين وذهبت مباشرة لأتفقد العناكب، كان واحد منها قد فارق الحياة تماما، كان ميتا مثل حصاة صغيرة، يبدو أنه قد حصل تزاوج، الأنثى فازت، وتلك العلامة الحمراء في بطنها التي تشبه الساعة الرملية تبدو وكأنها إعلان صريح عن الطريقة التي يتم بها الأمر، إن حياتك تنتهي بمجرد أن تنتهي، هذا ما تقوله لزوجها، يمكنك أن تمارس الجنس معي لسنة كاملة، وستظل حيا لسنة كاملة، غير ذلك فأنت ميت، فلم تحظى بلقب الأرملة السوداء من فراغ أبدا. الآن بقي ذكر واحد مع هذه الزوجة الناكرة، لقد قتلت زوجها الأول بمجرد أن حصلت منه على ما تريده، وها هي الآن ماضية

في نسج المزيد من الخُرق لينام عليها صغارها اللذين ستنجبهم في وقت لاحق، في هذه اللحظة أتت القطة والتفت حول ساقي لتطلب عشائها.

بحثت في الثلاجة الخاوية فوجدت كيسا بيه القليل من الحليب أظنني كنت قد نسيت أمره منذ مدة، ولذلك أردت التأكد من أنه ما زال يصلح لمعدة قط فحاولت شم رائحته، لكن لم تكن به رائحة، ولا رائحة الحليب حتى، ولذلك أفرغته في صحنها ورحت أبدل ملابسي.

عدت وتناولت شيئا من الطعام ثم ملئت خزان الماء ورحت نحو السرير فاستلقيت عليه وأدرت المذياع واستغرقت في التفكير لفترة، ثم ارتأيت أن أدعو زوجتي لتنام بجانبي فنحن لم ننم معا منذ نهار كامل.

قمت فأنزلتها من على الباب وعدت فطرحتها على السرير بجانبي ومددت ذراعي، ظننت أن هذا سيكون به القليل من الرومنسية، بقينا نحدق في السقف بينا يلغط المذياع دون توقف، لم تقل حياة أي كلمة، ولا أنا أيضا، لكن يعرف كلانا كم يحب أحدنا الآخر، بالمناسبة أعتقد أنه قد حان الوقت لكي أقص حكايتها، قبل عدة سنوات وتحديدا بعد الفترة التي تلت طردي من الشركة، كنت قد خرجت من هوة الاكتئاب التي سقطت فيها بصعوبة، وحينها كان علي أن أبحث عن عمل آخر أعيل به نفسي، جبت جميع الشركات التي

كنت أجد في مسيرتي علاقة بها، لم يقبلني أحد، زرت كل حوانيت المدينة وعرضت نفسي على كل من له أي سلطة على أي سلعة مهما بلغ حجمها، لكنني قوبلت بالرفض دوما، أردت تنظيف الأرضيات فلم أحظى بفرصة، أردت غسل المواعين فلم يحدث، أردت أن أصير إسكافيا فلم يعلمني أحد، ثم أردت أن أصير خياطا، وفي اليوم الذي أردت أن أصير فيه خياطا قابلت ذلك العجوز ذي اللحية البيضاء والذي كان يبدو أنه الوحيد في المدينة من لم يتعرف حكايتي، لقد جلست هنالك قبالته في وسط ذلك الدكان الصغير وانتظرت منه أن يجيبني، فقال بعد نصف ساعة واحدة فقط، ولم يزد على ذلك، قال ناظرا نحوي ودون أن يستعمل نظارته رغما أنها كانت فوق أنفه :

- " أتعلم كيف يصبح الإنسان خياطا يا بُني؟"

وشعرت بأنني حمار وحشي من سلالة غير ذات أصل جيد، فعاد يقول لما رأى أنني قد تجمدت ببلاهة :

- " إنه يذهب إلى محل تباع فيه آلات الخياطة، فيبتاع لنفسه واحدة، ثم يعرج على محل يباع فيه القماش وتباع فيه الإبر، ثم يبتاع لنفسه ما يظن أنه يكفي لتعليمه، ثم يجد لنفسه مقصا جيدا فيشرع في قطع القماش إلى قطع صغيرة ثم يشرع في محاولة إعادة لصقها، وهكذا وبعد أسبوع أو اثنين

سيكون بمقدوره أن يُعلق لافتة على باب دكانه، محل خياطة، هل أنت فاهم؟"

فاهم، أجل، فاهم مثل حمار له ضرس كبيرة، هل كان من الصعب عليّ أن أفكر وأصل إلى هذه النتيجة بنفسي؟ لا.لا أيها العجوز القذر الذي يرتدي حفاظة تحت سرواله.

عدت من فوري فأخرجت النقود التي كنت قد وفرتها خلال سنوات عملي فذهبت بها إلى الحوانيت التي أوصاني بها العجوز صاحب اللحية البيضاء وابتعت لنفسي آلة خياطة وخمسة أمتار من من القماش وعدت بها إلى شقتي، ثم لم أعد أخرج بعد ذلك أبدا، قضيت أسبوعا كاملا في غرفة واحدة أحاول تعلم الخياطة، وحينما انقضى الأسبوع الأول وأدركت بأنني لا يمكن بحال من الأحوال أن أكون حمارا له ضرس كبيرة، إذ أن هذا المخلوق لن يكون بمقدوره أن يخيط شيئا بهذه الروعة، إذ أن الحمار لا يصنع لنفسه زوجه، فبالنسبة إليه كل ما يتطلبه الأمر هو أن ينهش عنق حمار آخر، وأنا لم أنهش عنق أحد، بل صنعت زوجتي بيداي الاثنتين، في تلك اللحظة جمدت لعقد من الزمن، ثم رفعت ذلك الفستان عاليا وأنا أنظر إليه بعينين تشعان مثل الشمس، صحيح أن الفستان كانت به بعض العيوب الصغيرة التي يمكن

ملاحظتها بسهولة مثل أن أحد ذراعيه كان أطول من الآخر كما أن فتحة الصدر كانت تميل نحو الجانب الأيمن لكنني لم أكد أصدق أنني استطعت أن أنجز شيئا دون أن يكون في يدي قلم. ربما كانت سعادتي في تلك اللحظة تعادل سعادة إسحاق نيوتن عندما تمكن من سرقة فكرة الجاذبية.

14

استيقظت صباحا بصعوبة، وأنا أتقلب شعرت أن أضلاعي كانت تتكسر، حتى لقد سألت نفسي هل أتى السيد أحمد وذهب بي إلى المرملة، هل ملأت في الليل خمسين شاحنة دون أن أشعر؟ لا، فالطريقة التي فتحت بها عيناي لم تكن تشبه طريقة رجل كسب لتوه عشرة آلاف دينار، فلقد فتحتهما مثل رجل فقير تماما، لقد نظرت نحو الجدار ولم أبتسم لأن الصباح حل بسرعة.

الحادية عشرة والعروس لا تزال نائمة، لكن الطريقة التي تنام بها في كل مرة... ذراعاها متعاكسان تماما، وبطنها عند قدميها، ورأسها في مكان ما، لابد وأنني رفستها كثيرا أثناء نومي، فلم ننم معا لليلتين متتاليتين منذ فترة طويلة. الآن قمت بصعوبة ورفعتها من على الفراش وعلقتها على الباب حتى تشعر براحة أكبر، ثم أردت أن أستدير نحو المطبخ، لكنني سقطت فجأة، والتصق خدي بالأرض ووجدتني أنظر إلى القطة وقد كانت تجلس على قائمتيها الخلفيتين مثل أسد صغير وهي تراقبني من مقربة.

لم أتبين كم مر من الوقت عندما أفقت، حتى لقد نسيت تماما أنني أمتلك ساعة حائط، قمت ورحت أترنح نحو السرير مرة أخرى واستلقيت عليه مثل حوت أزرق، لم أعرف ما الذي كان يحدث معي، كنت أشعر باختناق ووجدت صعوبة في التنفس، مثل أن ثورا كان جاثما بمؤخرته الكبيرة على صدري، وأطرافي، أطرافي كانت تؤلمني وكأنما جزارا عالجها بسكينه لكن دون أن يقوم بفصلها، مرت ساعة وأنا على تلك الحال، وكانت القطة تأتيني من وقت لآخر فتجثم على السرير بجانبي أو تمر من فوق بطني ثم ما تلبث أن تذهب مرة أخرى، لقد كان الجوع يهد بطنها الصغيرة، وأنا أيضا، نظرت إلى ساعة الحائط بصعوبة، وفهمت أن الظلام يوشك أن يحل، حاولت أن أفكر فيما يمكن أن يكون قد حل بي، وتذكرت حادثة الأمس، حينما أخبرني ذلك الرجل الذي كان ملفعا في ثياب فضائية بأنه ينبغي عليّ التوجه إلى المستشفى، و إلا فقد آخذ معي خمسين ألف شخص إلى باطن الأرض، لكنني استسهلت كلامه، ونفيته ورميته مثل عقب سيجارة، والآن يبدو أن نبوءته بدأت تحقق، يبقى أنني لم أفهم، لم أفهم كيف... حسنا، يحدث أن يموت الشخص، إنني أتقبل أن أموت مثل أي مخلوق آخر، ربما تكون حانت نهايتي، فهذا الشريط لابد أن يُقص يوما، لكنني قابع هنا في سريري، فكيف لي أن آخذ كل أولئك

الناس إلى باطن الأرض معي؟ لمجرد أنني لمست رجلا طريحا في الشارع، لقد كنت عاجزا تماما عن إيجاد أي تفسير لكلام ذلك الرجل، لكنني قررت حينها إنه إذا انتهى بي المطاف إلى باطن الأرض في تلك الليلة فسأحرص على إيجاد خمسين ألف روح نزلت لتوها مجتمعة وسؤالها عما حدث.

مجددا، استيقظت مثل رجل فقير ليس لديه سبب ليبتسم إلى جدار فارغ، أيضا بألم يقرص جميع جسده، غير أنه كان قد خف قليلا عن الليلة الماضية، كما أنني شعرت بأن أنفاسي باتت أسهل، والحمى بدأت تذهب، ووجدتني أحرك عنقي بحرية أكبر، أملت وجهي نحوى زوجتي فوجدتها ترمقني بنظرات طيبة، وأما القطة فكانت لا تزال تحرك ذيلها عندي قدمي، هي لا تحب التجول في الخارج مثلي تماما. لو أنني كنت أمتلك من المالي ما يغنيني عن ذلك. اللعنة، قلت... لقد جعلتها تصوم ليومين متتاليين، قمت متحاملا وسرت إلى المطبخ الصغير وبحثت لها عن أي شيء يمكن أن يمر من عنقها الصغيرة دون أن يجرحها، وعثرت لها على قطعة خبز كانت بداخل كيس أسود،

ووضعتها أمامها، لكنها رفضت تناولها، لم ألمها ولو للحظة، فلو كانت تصلح للأكل حقا فما كنت لتبقى كل ذلك الوقت مخبئة.

15

-بعد مرور شهر-

حسام هو شاب لو كان قد سأل المرآة عن أجمل رجل في المدينة لما ردت له جوابا، أتعرفون لماذا؟ أجل، لأن المرآة لا تتحدث، لا تتحدث تماما مثل فتاة رفعت رأسها عن الأرض فجأة بعد سقطة لعينة لتجد الرجل الذي أحبته من مبعدة لأربعين أسبوعا دون أن يلحظها واقفا أمام عينيها يحاول الاعتذار منها، هل سيكون بمقدورها أن تتحدث؟ بل إنها ستصمت أمامه بشكل بالغ، فيصبح فمها مثل قبضة مغلقة، ولن تقدر على قول أي شيء أبدا، أقسم أنها قصة حقيقية، إنه الجمال، الجميع يتيبسون أمامه عند أول لحظة، لقد قال ذات يوم وهو يبتعد عن باب بيته، لن أتأخر يا أمي، أعدك، سوف أعود قبل العاشرة ليلا، كان يرتدي ثيابا أنيقة، خرج مبتسما متعطرا، كان مرتبا مثل قلم جديد تماما، لم يرى الناس يوما حبة تراب في ثيابه، ولم يعرفوا خصلات شعره الطويلة الذهبية إلا رطبة، ولا عينيه الزرقاوتان إلا ناضحتان بالسعادة، ولا ثغره إلا باسما مثل شمس صغيرة، ولو أن رجلا غريبا كان يطالع الأمر لما

استطاع أن يتبين مكان أمه أبدا، لأن عدد الرؤوس التي كانت تطل من النوافذ القريبة تجاوز المائة، وهذا يعني أن عددا من الأعين يجاوز ألمائتي عين كانت تطالع ذلك الشاب، عيون ذابلة ضيقة أو واسعة، كل امرأة راحت تطالع ملاكها بالطريقة التي تناسبها، والتي تتقنها، نساء من مختلف الأعمار والأشكال أيضا، لقد كان مثل وردة تقف وحيدة في وسط الزرع حين يسقط عليها أول المطر، إنه لابد كاسرها، فيمكن للمرء من أول نظرة أن يعرف أن تلك العيون (و إن كانت مخدرة لا تشعر) إلا أنها تحمل في طياتها شرا، فكان ذلك الشاب هو الأمير الغير متوج لهذه المدينة، الجميع يحبه بطريقة ما، النساء تتمنين الحصول عليه والرجال يتمنون لو يقتلهم الله اليوم ويعيد إحيائهم غدا بطريقة مشابهة، وهكذا، عاش حسام حتى السابعة والعشرين من عمره، وفي يوم جلس على عتبة باب بيته يشرب قهوته، كان صباحا مشمسا تنضح منه عطور زكية، حيث جلس يمازح المارين ويلقي النكات على أصحابه، كان صوت ضحكاته مثل أغنية طيبة، حتى أتت شاحنة كبيرة مسرعة كانت في منعطف قريب فمال جنبها وراحت في غير الدرب الذي صنعته الدولة لها، فأين تذهب عجلاتها في رأيكم بعد ذلك؟ لقد ذهب تماما نحو حسام ومرت فوق وجهه، أجل، لقد مزقت عجلات الشاحنة وجهه الجميل

فطلعت روحه من فورها عند عتبة باب بيته... كل هذا وتلك الأعين القبيحة تنظر، الآن لماذا أقص هذه الحكاية؟ إنني واقف هنا عند النافذة منذ ساعة، أراقب رجلا ثريا ميتا يُحمل إلى قبره، رغم أنه كان رجلا ثريا حيا قبل ساعة، وقد كنت أحسده في ما مضى، لأنه كان بمقدوره أن يشتري لنفسه وجبات بالقدر الذي يريده، وقد قصدته مرات عدة من أجل العمل لكنه لم يقبل أن يُشغّل سارقا مثلي، لديه محل ملابس وآخر للأقمشة ومطعمان أو ثلاثة، لكنه الآن ميت، وعندما رأيته تذكرت ذلك الشاب الأشقر، وقلت في نفسي هل مات هذا الرجل محسودا أيضا!! و إذا كان الأمر كذلك فهل بمقدور عيناي هاتين أن ترسلا فيروسا إلى حلقه؟، لكن بعض الأعين قلبت شاحنة بأكملها فوق ذلك الفتى، فلماذا تعجز عيناي عن تطيير فيروس صغير لا يُرى!، هاه، حسنا، ما يهم الآن هو أنه انظم إلى القائمة، قائمة الخمسين ألف ميت اللذين نبأني المسعف بأنني سأقودهم إلى تحت الأرض، حسنا، الآن هم يسبقونني، ربما لم تسر الخطة بالترتيب المناسب، لكن في النهاية الأمر يحدث، مر شهر كامل على تلك الواقعة، ومنذ ذلك اليوم، يكون قد سقط حوالي ثلاثة آلاف شخص، يذيعون عددا جديدا في المذياع كل ليلة، الآن تبقى سبعة وأربعون ألفا، (الكوفيد)، هكذا يدعونه، إنه الفيروس الذي ضرب الكوكب منذ

شهرين أو ثلاثة قادما من الصين العظيمة، يقال أنهم تناولوا الخفافيش بأحشائها، وأنا لم أسمع به إلا منذ فترة، كان الناس يشاهدون الأخبار في التلفاز والهواتف، لكنني لا أملك غير المذياع، ولذلك كنت شبه منعزل عن العالم الذي يقع خارج هذه المدينة، يُذكر هذا الشيء سبعة ملايير مرة في كل يوم على الأقل، كل الناس يتحدثون عنه ويرتجفون منه رعبا، إنه مثل الشبح، لا يرونه أبدا، لكنهم يعلمون أنه في كل موضع، على مقابض الأبواب وعلى الأوراق النقدية وعلى الملاعق وعلى الملابس الداخلية وفي النظرات وفي الهمسات وفي كل موضع أصبع، بل هو قابع تحت الأنوف أيضا، ولذلك اختفوا جميعا من الشوارع، لم يعد الناس يخرجون إلا لحاجة مُلِحة، بل إنهم توقفوا عن مصافحة بعضهم، لكن من الأشياء الجميلة التي وقعت أن طوابيرهم أصبحت منظمة، فأصبح من الصعب أن يضع الرجل يده خفية في جيب آخر ليستل ما فيها، الآن فقط صرت أفهم كيف بمقدوري أن أقود خمسين أو ربما ألف ألف إنسان إلى باطن الأرض، إن الفايروس يتكاثر بسرعة عجيبة، حتى أن المستشفيات قد امتلأت عن آخرها، العجيب في الأمر هو أن اللذين يحتاطون منه بشدة هم أكثر من يصاب به، ربما من كثرة ما يتناقلون المواد المعقمة بينهم، لكنني واقف هنا أحاول التفكر فيما

يحدث، مريم قد غادرت مع والدها إلى الريف منذ عشرين يوما، لقد هربت وتركتني وحيدا هنا، إنني أضحك، وكأنني في الأصل كان لي أحد، لا لم يكن، إنني لم أمتلك في حياتي شخصا يهمه أمري، الحق أنني جائع، فلم أحصل على عمل منذ شهر كامل، أي منذ مرضت في تلك الليلة، هاه، وقبل أن يفوتني ما أردت قوله فإن رجلا التقيته في الصباح قال لي بالحرف الواحد :

- " أحسدك لأنك وحيد لا تملك من تخاف فقده..."

كنا عشرين رجلا وكنا نصنع طابورا عند محل بقالة، نترقب وصول أكياس الحليب بفارغ الصبر، وكان الناس يتحدثون عن الفايروس، وعن الموت، وعن المعكرونة، أحدهم أقر بأنه اشترى ثلاثة أكياس من الطحين في يوم واحد، وأقر آخر بأنه استطاع أن يكدس في بيته عشرين كيس صغير من المعكرونة بالإضافة إلى عشرة أكياس من الكسكس وعشرة أرطال من الفاصولياء وغيرها، اللعنة لقد كان رجلا بثراء فاحش، يمكن للأشياء التي ذكرها أن تبقيني حيا لمائة سنة أخرى، لكنه اشتكى في الأخير من أنه كان ينبغي عليه أن يحصل على كمية أكبر، وكأن عاصفة ثلجية توشك أن تحل علينا، لكن حينما حان دوري لأتحدث بدا وكأن أحدا لم يعرفني، لقد ناولوني الدور حقا، أعطوني فسحة، لقد صنعوا لي مكانا بينهم، كان الحديث يأتي من

مقدمة الصف قادما نحوي، فقلت مصطنعا سيماء الجدية، وكأني أملك كل شيء عدا كيس الحليب هذا، هممم... أنا أعيش لوحدي ولدي مشاغل، لدي أعمال يجدر بي إنجازها، لكنني أملك قطة، والقطط تشرب الحليم كما تعلمون جميعا، وإلا فأنا أشتري لنفسي علب الكرتون، نيستلي، كونديا، و....، ها أنا ذا قد انطلقت مجددا في الكذب، لم يبدو وكأن أحدا قد اكتشف كذبي، هذا الفايروس قد أنساهم أمري تماما، واشغلهم بأكياس المعكرونة، لم يعودوا يعرفونني، وكأنني شخص جديد بينهم، أو شخص قديم صالح، لقد نظروا إلي باهتمام بالغ، رغم كوني أفقر شخص بينهم، قلت :

- " أنا لن آخذ أكثر من كيس الحليب هذا، لأنني بالفعل أملك في البيت كل ما أحتاجه، هذا فقط... آمل أن يستمتع الجميع بيومه".

وهنا انطلق من خلفي ذلك الصوت، كان ثخينا مغمورا بالبؤس والتعب :

- " أحسدك لأنك وحيد لا تملك من تخاف فقده... أما أنا فقد تركت أمي في المستشفى، إنها لا تزال حية، لكنها تنام بين الجثث، أنا رجل في الخمسين، لكنني رأيتها في الصباح فبدت وكأنها ماتت منذ ولادتي، لقد أصبح وجهها مثل حبة الزبيب القديمة..."

ليتني أمتلك تلك الأم التي يشبه وجهها شيئا ما، أي شيء، ويا لسوء تربيته، إنه يقول عن أمه شيئا كهذ، لقد تركها ترقد حية لوحدها في مقبرة، ثم أتى إلى هنا مثل البغل الكبير المرهف الحس وشرع في النحيب مثل طفلة.

- " هش، لو كنت مكانك لما غادرتها، لكنت سحبت ذلك الفايروس اللعين من أنفها بأنفاسي، كنت سحبته بأي طريقة، لم يكن ينبغي عليك أن تتركها أبدا..."

- " ليس الأمر وكأنني لم أعد أحبها، لكنني عشت معها خمسين سنة، بينما عشت مع ولداي لخمس عشرة سنة فقط، وأعتقد أنه يجدر بي البقاء معهما لوقت أطول..."

هذه الحادثة جعلتني أفكر كثيرا عن ماهية الحب، هل هو عناق، أم قبلة، أم رزمة نقود ورقية، أم هذا الحب الذي كان بين أم وابنها ثم فتر بعد خمسين عاما، ألا يجدر بالحب ألا ينتهي؟ وأنّ أي شيء ينتهي في منتصف الطريق لا يجوز أن يسمى حبا، حسنا لا أدري بشأن هذا، أما أنا فلا أعلم حتى اليوم أنني أحببت يقينا غير النقود التي أكسبها ولو على قِلّتها، وربما أنا مولع بمريم قليلا، رغما أنها غادرت أيضا، لكنها تركت لي رسالة لأقرأها كل ليلة، ففي ذلك اليوم الذي استيقظت فيه وأنا بكامل عافيتي أردت الخروج من

الشقة لكنني عثرت على رسالة كانت قد أُلقيت من تحت الباب منذ يومين أو ثلاثة، كتبتها مريم قائلة :

مرحبا يا سيد جواد، لقد أردت أن أكلمك وجها لوجه، لمرتين جئت أطرق باب شقتك لكنك لم تكن موجودا، آمل أن تكون بخير عندما تعود، لقد قرر والدي أنه ينبغي علينا أن نغادر المدينة، الفايروس ينتشر بسرعة كبيرة، لكننا سنذهب عند عمتي في الريف، سنختبئ هنالك ريثما تعود الأمور لطبيعتها، لم يرد أبي أن يخبرك بهذا لكن لا يوجد شخص آخر بمقدورنا أن نأتمن عليه النزل، إننا سوف نكون شاكرين لك كثيرا إن استطعت أن تتكفل بجمع الإيجار من عند جيرانك، أنا واثقة من أنك تستطيع فعل هذا، أنت شخص ذكي جدا، لقد أصلحت البيانو خاصتي مرتين، لكننا سنعود في يوم ما، قد يمكث هذا الفايروس شهرا أو سنة، لكننا سنعود في النهاية، عمتي تعيش لوحدها منذ سنوات، إنها تمتلك مزرعة كبيرة، وسوف نساعدها في الاعتناء بأبقارها، لقد توفي زوجها ولم يترك لها ولدا، لكنها سعيدة رغم ذلك، تقول أنها تحب حلب البقر أكثر من أي شيء آخر، أنا أيضا أريد رؤيتها، أعتقد أن هذا الأمر لن يطول كثيرا، آمل هذا.

هذا ما اقرأه كل ليلة، هذه الرسالة تُبقي دماغي حيا، فهي تبعث الأكسجين بداخله، و إلا فإنه كان سيضمر، لأنني لم أعد أجد شخصا أتحدث معه، الناس قد توقفوا عن البناء، الأسعار ترتفع، والمرملة لا تعمل، أما المقاهي ومحلات الطعام فقد أغلقت أبوابها، لم أقشر البطاطس منذ شهر كامل، ولم تعد معي قطعة نقدية واحدة، إنني أقف الآن عند النافذة أتفرج على الشارع، شعر رأسي يكبر، وشحمة ذقني تختفي، والحلاقون يعملون خفية، وأنا لم أكن مقربا يوما ما عند أحد، على أي حال، كان المساء يأتي في تلك اللحظة، واستدرت نحو الغرفة التي كنت أبقي فيها خزان الماء وعلب الكرتون وكل الخردوات الأخرى، لكنني أفرغتها بالكامل منذ بضعة أيام فقط لأضع العناكب بداخلها، تلك الأنثى الصغيرة القاتلة قد صنعت لي بعض النسخ الصغيرة عنها، وصارت تتجول خارج صندوقها، عشرة عناكب كاملة، ولذلك ارتأيت أن أنقلها إلى مكان أوسع، والآن أجدها بالفعل وقد خاطت بعض الشباك في زوايا الغرفة، كما أن النافذة مشرعة على الدوام، وبهذا لم أعد مضطرا لأن أشتري لها طعاما، الذباب وكل الحشرات الأخرى تتدفق إلى الداخل، المكان يصبح مثل مقبرة كبيرة يوما بعد يوم، وضعت ظهري على الجدار وانزلقت عليه حتى لامست مؤخرتي أرضية الغرفة، راقبت العناكب لدقيقة كاملة، ثم

تذكرت كم أنني جائع ومتعب، ووحيد أيضا... ووضعت رأسي بين ركبتي وأغلقت عيناي.

16

بعد مرور شهرين آخرين، فتحت عيناي لأجد الغرفة وقد تحولت إلى ما يشبه غابة مخيفة، كانت النافذة شبه مغلقة، وكان قليل من الضوء يتسرب إلى الداخل، لكن كان بمقدوري أن أرى الشباك وهي تكاد تغطي كل موضع، والعناكب قد بلغ عددها ما لا يمكن حصره، إنها تتحرك في الزوايا مثل الحشرات الصغيرة، وبعضها معلق في الهواء منشغلة بتفتيت بقايا الذباب أو بتنظيف نفسها، كان الأمر مذهلا بحق، إنّ الأمر يحدث، بالفعل إنه يحدث، لقد كان بمقدوري أن أرى قدري منتصبا وسط الغرفة، هذا تماما ما حلمت برؤيته، لكن لم أدري ما كانت طبيعة الشعور الذي خالجني في تلك اللحظة، فلم تتسرب قطرة واحدة من السعادة إلى صدري، كان يفترض بي أن أسعد مثل نملة عند عشها وآخذ في القفز يمنة ويسرة، لكنني قمت دون أن أنفض ملابسي ومشيت نحو النافذة وفتحتها لأطل نحو الخارج، كان واضحا أن الوباء لم يذهب، الناس يتجولون وهم يغطون وجوههم، وكأن السم ينتشر في سماء المدينة، أصدر بطني صوتا، وحينما التفت إلى الخلف رأيت القطة تقف عند الباب تطالعني بنظرات ساطعة، يبدو أنها كانت جائعة مثلي، رحت

نحوها ومشينا معا نحو ركن المطبخ وانتظرتني في الأسفل حتى نزلت عندها بصحن من الحليب وجلست أراقبها وهي تلعقه لعقات بطيئة وكأنها تخشى أن ينتهي قبل أن تشبع، أعرف أنها باتت تفهم الوضع الذي آل إليه حالنا، فلم تعد تموء مثل طفلة صغيرة دون توقف حتى تحصل على ما تريده، هي تعرف أن الطعام الذي حصلتْ عليه منذ أيام قليلة لن يتكرر مرة ثانية، لقد أدركَت ذلك عندما رأتني أضعه أمامها ثم أجلس مقابلها لأشاركها فيه رغم قِلته، كان ذلك حينما تسللتُ قبل أسبوع من الآن إلى منزل تلك المرأة، ربما تذكرون المرأة التي رأيتها تقتني طعاما للقطط بثمن باهظ من محل السيد سعيد، حينها تكونت هذه الفكرة في رأسي، لقد فكرت إلى أي مدى ستكون القطة سعيدة حينما تضع مثل ذلك الشيء في فمها، لكنني نسيت الأمر تماما بعدها، ثم جاء ذلك اليوم حينما كنت عائدا من الحديقة العامة بعد أن جلست هناك وسلخت سبع ساعات أفكر في الوقت الذي أمضيته وأنا نصف ميت، عندما نمت لثلاثة أيام على أرضية الغرفة، كنت أعتقد أن ذلك كان بسبب الوباء الذي انتشر في الكوكب، لكنني اكتشفت بعد ذلك أنني لم أصب به أبدا، لقد أجريت تحاليل مجانية في خيمة أقيمت في الساحة الكبيرة وظهر أن الدم في عروقي لا يزال نقيا مثل الماء البارد، وعدت بعد ذلك إلى

شقتي فدخلت الحمام مسرعا وألقيت ملابسي حتى تعريت مثل دودة كبيرة وحملت المرآة ولوحت بها يمنة ويسرة حتى رأيت بقعة حمراء خلف عنقي، وأدركت حينها أن عنكبوتا خرج من صندوقه وتسلل إلى فراشي، وبسبب ذلك سقطت مثل الجذع اليابس على أرضية الغرفة لسبعين ساعة، حسنا، كنت أقول أنني عدت من الساحة العامة في ذلك اليوم فرأيت تلك السيدة تقود سيارتها (البيجو 308) خارج مرآب صغير وكانت مؤخرتها مفتوحة ومحشوة بعلب الكرتون الكبيرة، وأدركت أنها كانت ترحل في عجالة، لقد كانت تفر أيضا، تماما مثلما فعل البخيل وابنته، والكثيرون ممن يملكون مواطن أخرى في هذا الوطن، أما أنا فتأملت المنزل الذي تَرَكَته خلفها، وكان يشبه القصر الذي كنت سأرسمه في مخيلتي وأرغب في امتلاكه لو أنني كنت أميرة، نظرت طويلا حتى لم يخرج منه أحد، ثم اقتربت من السور وسرت بمحاذاته وتلمسته، كان نوعا من تلك الأسوار التي بمقدور المرء أن يضع قدمه عليها دون أن تنزلق بسهولة، وأكملت سيري بعدها نحو النزل، وعندما حل الليل عدت مجددا، وتسللت في الطريق العام هربا من الشرطة، فمنذ شهر بدأوا يخرجون ليلا لفرض حظر التجول، وكنت أسمع سيارتهم تعوي من بعدة، ربما كانت تطارد أحدا، وكان الأمر جيدا لأنه كان يأخذها بعيدا عني.

كان الشارع الذي تسكنه تلك السيدة هادئا بشكل بالغ، كان هادئا مثل علبة كبريت فارغة منسية فوق الثلاجة، لقد كان بمقدوري أن أرفع لافتة فوق رأسي أخبر الجميع فيها بأنني أنوي أن أسرق الليلة، وما كان أحد ليقرأها، سرت حتى آخر السور ثم توقفت لأرى إن كان حسن الصنعة، وما هي إلا لحظات حتى سقطت برشاقة مثل قطة صغيرة على الجانب الآخر على بساط من العشب الأخضر، ووقفت بعدها فنظفت ملابسي وسرت مثل اللص على أطراف أصابع قدميّ حتى بلغت النافذة، وأتيت بحجر كان قريبا وصحت مثل قطة حتى يختلط المواء بصوت تكسر الزجاج، وأدخلت يدي وأدرت مقبض النافذة ودفعتها إلى الداخل.

على ضوء القداحة التي أخرجتها من جيبي اكتشفت أنني كنت أقف وسط المطبخ من أول مرة، أدرت الضوء نحو كل موضع حتى رأيت الجدران الأربعة، ورحت بعدها نحو صف من الأبواب الخشبية الصغيرة المعلقة ففتحتها جميعا وأخرجت من إحداها كيسا من طعام القطط وجعلته تحت إبطي وأعدت إغلاقها، وعندما هممت بالخروج وجدتني أقف وجها لوجه أمام ثلاجة كبيرة، ورأيت يدي ترتفع إليها، ثم رأيت بابها تنفرج، وانفجر منها الضوء والطعام الملون، وسقط كيس القطط من تحت إبطي وانحنى ظهري واندست

يداي ورأسي في الداخل، ومضى من الوقت ما لست أذكر، وحينما خرجت من الثلاجة كان بطني قد انتفخ، وانتبهت إلى أنني كنت أبكي بصمت مطبق، كان الدمع من عيناي ينهمر مثل واد في النرويج. لقد كان بذلك الاندفاع تماما. وكان أنفي يشهق شهقات صغيرة، ربما كنت قد تناولت شيئا حارا، رغم أنني حتى اللحظة لست أذكر شيئا مما أكلته، لأن دموع الفرح كانت تملأ عيناي حتى لم أستطع رؤية ما كانت تمسكه يداي في الداخل، بحثت بعدها عن كيس القطط فأعدته تحت إبطي وأغلقت باب الثلاجة وعندما رفعت ضوء القداحة مرة أخرى فقد راح صوب كلب صغير كان يقف على قائمتين قصيرتين عند الباب يطالعني بعينين كرويتين صغيرتين ناعستين تلمعان في الظلمة.

من حسني حظي أن ذلك الحيوان كان يملك رأسا صغيرا لا يكفي أن يكون ثمة إنسان بداخله، و إلا فقد رحت أتبع ذيله الصغير المرتفع وهو يركض ببطء بعيدا عن المطبخ حتى أتى إلى غرفة واسعة فيها أثاث كثير وتوقف قريبا من الجدار أمام صحن بلاستيكي صغير أزرق اللون كان قد بقي فارغا وجعل يحرك ذيله مثل ذيل أفعى مجلجلة بينا يطالعني بوجه لطيف يرغب في بعض الطعام لا أكثر، وأخذت الكيس فأفرغت له القليل حتى يصمت، لكنني

فجأة سمعت سيارة ترعد خارج المنزل، وانتظرت واقفا لعلها ترحل، لكن صوتها سكن فجأة وعرفت أن صاحبة المنزل قد عادت، وحينئذ شتمت نفسي شتيمة قذرة، ونظرت إلى الكلب اللعين وتساءلت لأول مرة عما كان يفعله هنالك في ذلك البيت لوحده إن لم يكن ثمة أحد سيأتي لأجله في وقت لاحق، وكل تلك الأبواب المفتحة، وذلك الطعام الجاهز الذي كان في الثلاجة، لقد طحنت كل هذه الأسئلة في ربع ثانية، ويا له من مأزق كنت قد أوقعت فيه نفسي.

والآن سكنت مثل صخرة بينا أسمع صوت المفاتيح وهي تدار في القفل، ودُفع الباب وأتت قدمان خفيفتان في الرواق ثم أضيئت الأنوار فجأة، وراح الكلب ينبح نباحا مرحا، وجاءت السيدة نحوه، ويبدو أنها كانت تحمل قطتها فتركتها وانحنت نحو الكلب ووصفته بالمشاغب والمسكين وسألته إن كانت قد أخطأت في طعامه، وترجته أن يسامحها، ووعدته بأنهم سوف يرحلون في الصباح معا جميعا، وانحنت نحوه وأخذت شيئا وراحت وتبعها الحيوانان وأطفأت النور وسمعت وقع خطواتها على الأدراج وهي تصعد إلى الطابق العلوي، وحينئذ تركت الهواء يعود إلى رئتي وكنت سعيدا لأنها لم تدخل المطبخ، وكنت حتى هذه اللحظة لا أزال محشورا بين الأريكة والجدار

مثل صرصور عالق، وانتظرت خمس دقائق لأرى إن كانت سوف تنزل مرة أخرى، لكن يبدو أن التعب كان قد نال منها فخلدت إلى النوم مباشرة، وحينئذ قررت أن أخرج فدفعت الأريكة بحذر ونظرت فإذا بكيس الطعام قد اختفى فحملت طبق الكلب وأفرغت ما بقي فيه من الطعام في جيبي ثم انسللت مثل أبو بريص وسط الظلام حتى أتيت المطبخ وقفزت من النافذة.

مشيت بعيدا عن السور الخارجي للمنزل، وسرت في الزقاق الهادئ على أنوار المصابيح وأنا ألغط مع نفسي وأشتم، وكنت أكاد أخرج إلى الشارع الكبير حين أحسست بشيء يلاحقني، ونظرت خلفي فإذا بشعاع ساطع يصدم وجهي فجأة حتى سقطت على الأرض من شدة الرعب، وسمعت صوت مزمار يعوي وقمت بعدها وأنا أرى أبواب سيارة الشرطة تنفتح وخرج منها شرطيان وجاءا نحوي على أنوار السيارة، وسألني أحدهما عما أفعل، وقلت له أنني إنما كنت أسير على قدميّ لا أكثر، ولم يزيدا عن أن رمشا بأعينهما لأن ذلك ضروري جدا، وفهمت بأنها لم تكن نكتة جيدة، لقد كانا يطالعانني مثلما أنهما عثرا على ورقة نقدية، وطلبا مني بطاقة التعريف فقدمتها، سألني أحدهما:

- " هل أكلت شيئا؟"

فأجبته :

- " ليس منذ خمسين ساعة".

- " فإذن تقول بأنه ليس ثمة بك أي خطب، ولم تتناول قطعة مخدرات صغيرة... هل هذا ما تقوله؟"

- " بالتأكيد يا سيدي، غير أنني جائع بشدة".

- " لكن تطلع منك رائحة نتنة، هل تغوطت على نفسك؟"

- " أبدا، وحتى لو أردت فعل هذا هذا فلن أقدر، فبطني فارغ مثل ثلاجة".

- " هل تظن أن كلامك مضحك، هل يفترض بالثلاجة أن تكون فارغة؟"

- " ألا يفترض بها أن تكون فارغة؟"

حسنا ربما لم أقدر في تلك اللحظة على أن أستحضر شكلا غير شكل ثلاجتي الفارغة.

سمعت الشرطي يصيح بعد ذلك:

- " أرني ما الذي تحمله، و إلا فسوف أضطر لتفتيشك".

- " أتمنى لو كنت أستطيع حمل شيء مثل الذي ترغب في رؤيته، لكنني لا أملك ثمن رغيف خبز حتى..."

ونظر نحوي بعينين ضيقتين ثم أتى بخطوتين بينا يأمرني بأن أضع وجهي نحو الجدار ثم وضع يديه على ظهري وأخذ ينبش ملابسي حتى صرخ مثلما أن يده وقعت على جسم مكهرب.

- " اللعنة، ما هذا، ما الذي تضعه في جيبك؟"

واستدرت نحوه وأخرجت حفنة الطعام دفعة واحدة :

- " هذا يا سيدي، هذا طعام قطط لا غير، أقسم أنه طعام قطط ولا شيء آخر".

ومسح الشرطي يده في الجدار متأففا وعاد نحوي بوجه يتطاير منه الشرر.

- " أيها المجنون العفن، إنك تحمل الخراء في جيبك، أيها ال... ما الذي، إنك سوف".

وكاد أن يتقيأ، لكنه ذهب إلى السيارة وشرب ماءً، ونظرت إلى صاحبه فرأيته يقطع قطعة ورق من دفتره وناولني إياها ببرودة أعصاب شديدة :

- " هذه لك..."

هذا ما قاله، والتف راجعا نحو السيارة، وانغلقت الأبواب واندفعت السيارة من أمامي مبتعدة، ونظرت في الورقة لوهلة ثم دسستها في جيبي وأكملت سيري بعد ذلك.

17

بعدما أنهت القطة حليبها حملت الصحن لأغسله لكن لم يكن ثمة ماء في الخزان، ونظرت إلى الثياب التي أرتديها وكانت آثار ملح العرق بادية عليها، رحت نحو المرآة فوجدت وجهي وقد انكمش حتى برز العظم في وجنتاي وباتت عيناي غائرتان بشكل فاضح وظهرت بقع سوداء تحتهما، وبينا أوشك أن أبكي بسبب المآل الذي ألت إليه إذ بي أسمع صوت طرق على الباب.

- " هل كل شيء على ما يرام؟"

قلت:

- " أي شيء تقصد؟"

- " إنني أسأل بشكل عام يا سيدي، لكن إذا كان علي أن أحدد أمرا فقد جئت أسألك عن العناكب، هل هي على ما يرام؟"

- " عناكب، أي عناكب؟ هاه.... تقصد العناكب، أجل، لقد ماتت منذ فترة، لقد كانت بضاعة مغشوشة، ولو اشتريت حصاتين لربما عاشتا أكثر من ذلك، وأرجو أنك جئت تسأل عنها حتى إذا لم تكن بأحسن حال فإنك سوف

تعوضني كما يفترض بأي تاجر سليم النوايا لا يرضى بأن يبيع عناكب يستحيل تربيتها إذ تموت بعد فترة قصيرة، ولكنني أعرف أنك تاجر سليم النوايا، و إلا لما رحت أقصد محلك منذ البداية، ولذلك فسوف أضع يدي حتى تجدها مشرحة أمامك وتضع فيها التعويض الذي عليك".

- " إنني لم آتي لأضع في يدك قطعة نقدية، حتى أنت نفسك من بعد آخر ما كنت لتأتي وتضع عملة نقدية في يدك في وقت عصيب كهذا، لم يعد أحد يوزع النقود يا رجل، إنك تخالط الشحاذين في الشارع وتعرف أنهم لم يعودوا يكسبون شيئا، حتى المصافحة بأيدي فارغة توشك أن تصير محرمة، لكن هل أنت متأكد من العناكب قد ماتت ولم تهرب، هل رأيتها متكورة بلا حركة؟"

- " أنت أدرى مني بسلعتك، حتى اللحظة أنت أكثر دراية مني بأنها ما كان يمكن أبدا أن تعيش أكثر من ذلك".

وظل سعيد يرمقني بنظرات نعسة، ثم إنه ألقى نحو الشقة نظرة متفحصة من فوق منكبي وقال بعدها :

- " سأطلب منك أمرا..."

- " بمقابل".

- " اللعنة عليك، إنني لم أقل شيئا".

- " لم تقل شيئا أيضا عندما أخذت مني ثمن العناكب، تلك الأشياء الميتة لم تعطنيها بالمجان كما أذكر، لقد كانت أمرا أيضا".

- " حسنا، حسنا".

- " أريد وجبة، أي شيء يؤكل".

- "لدي طماطم".

- "إنها تسبب الإسهال وليس عندي ماء لذلك".

- " يوجد فلفل وكوسة وخيار أيضا، وبطاطس".

- " ربما سأختار الخيار في هذه الحالة".

- "حسنا، حبة واحدة".

- "حبة واحدة وطست ماء وكأس حليب أيضا".

- "حبة خيار واحدة".

- " إذن دع أمرك عندك".

- " أيها الحقير البائس، تعال بعد دقيقة، أقول بعد دقيقة فلا تأتي قبل ذلك".

ذهب سعيد إلى شقته وعددت حتى الدقيقة ثم رحت خلفه، وفتح الباب وظهر من خلفها وهو يحمل الأشياء التي طلبتها.

- " انظر، إذا سألك أحدهم عن العناكب فلا تقل أني بعتك أياها في يوم ما، إنك لم تشتري من عندي شيئا في حياتك، هل تفهم".

- " حسنا، وأين هو الأمر الذي أردته في مقابل هذا الطعام؟"

- " هذا هو الأمر، لا تُحدّث أحدا عن العناكب".

- " إذا كان هذا كل شيء فاعتبر الأمر مقضيا منذ اللحظة".

ورمقني سعيد بنظرة يداخلها الشك والريبة، ثم تراجع بسرعة وصفق الباب في وجهي، وصحت نحوه :

- " مهلا، لحظة... كيف تعرف بأنني لم أحدث عنها قبل الآن؟"

وجاء صوته من خلف الباب مثل الصدى :

- " لأن الشرطة لم تأتي في طلبي... أو في طلبك".

- " غبي بائع حيوانات أحمق..."

شتمته بصوت خفيض ورحت أرتد عائدا، دفعت الباب بقدمي ودخلت فوضعت طست الماء على جانب وجلست على كرسي خفيض وأخذت حبة

الخيار في يد وكأس الحليب في اليد الأخرى ولم تمر غير لحظة وكنت أفترس حبة الخيار مثل أسد راح يبقر بطن غزالة.

18

الآن تكون قد مضت بضعة أيام منذ أن تناولت حبة الخيار تلك، وفي هذا اليوم كنت أجلس على مقربة من مركز البريد أراقب المتسولين رفقة صديق قديم لي، لم يكن هنالك أحد ينظر إليهم، ولم يكونوا قد جنوا دينارا واحدا منذ ثلاث ساعات مضت، كلانا كان يتضور جوعا، ولكنه كان أحس مني مظهرا، وكان يضع على رأسه قبعة وكان بإمكانه أن يبيعها ليشتري لنا طعاما، لكن رده كان كالتالي :

- " ته، لن أبيعها ولو مت جوعا، أتعرف ما الذي سأشعر به لو نزعتها؟"

- " ماذا؟"

- " لا شي... لن أشعر برأسي".

- " لقد حصل أحدهم على قطعة نقدية".

- " أرى هذا".

- " أنت لم تظهر هنا منذ مدة، ولن يتعرف عليك أحد".

- " لقد بات أمرك يدهشني، أنا بمقدوري أن أسرق بضمير مرتاح دون أن يرجف جفني، لكن أنت... أنا لم أعتدك سارقا قبل الآن فيما أذكر".

- " لكل شيء مرة أولى".
- " ثم لن ينقضي الكثير من الوقت حتى تنسى كم مرة فعلتها".
- " بوسعي فهم هذا".
- " فإذن هذه ليست تجربتك الأولى ."!
- " إذا لم تذهب الآن فقد يضعها في جيبه وسنفقدها للأبد".
- " حسنا، أعرف أنك لم تسرق من الشركة التي كنت تعمل فيها، ولذلك ينبغي عليك أن تخبرني بالقصة في وقت لاحق".

قال توفيق ذلك ورفع قدمه عن الجدار وانطلق في مهمته وذهب بعيدا حتى اختفى عن أنظار المتسولين ثم عاد أدراجه ناحيتهم، وجاء يمشي في خطوات سريعة ووقف عند أحدهم وانحنى ليتصدق له بقطعة نقدية وأكمل طريقه بعد ذلك مثل رجل مهذب.

دخلنا محل وجبات سريعة واشترينا أرخص وجبة ممكنة، في الأصل لم يكن بمقدور تلك القطعة النقدية التي سرقها توفيق من المتسول أن تأتي لنا بأفضل من ذلك، وضع توفيق ملعقة كبيرة من الهريسة فوق الكرانتيكا، وأكلتها أنا مع الماء، لم نشبع، لكن كنا نعرف أننا سنعيش لأسبوع كامل بعد

تلك الوجبة، خرجنا نتجول بعدها، وسألني إن كنت أملك عملا، لم أجبه، وسألته إن كان يملك واحدا، ولم يجبني، وتمشينا طويلا بعد ذلك حتى وقفنا أخيرا عند مطعم يعرض أفراخ الدجاج المشوي وقال توفيق بينا يحدق فيها بنظرة ضيقة :

- " هل أكلت اللحم في وقت قريب؟"

- " لا، لم أفعل".

- " ألا تعتزم أن تأكله؟"

- " وكيف أعتزم القيام بشيء كهذا، شيء يستحيل القيام به في أيامنا هذه ".

- " هاه".

- " ماذا، هل تعرف طريقة؟"

- " هل يهمك أي نوع من اللحم قد يكون؟"

- " يكفي أن يكون اسمه لحما".

والتفت نحوي دون أن يكون في وجهه تعبير ما :

- " سوف نذهب للصيد إذن".

- " حسنا، لكننا لا نملك معدات للصيد، لا نملك بندقية... وحتى إذا أردنا اصطياد السمك فإنه لا يوجد شاطئ قريب من هنا، كما أننا لا نملك نقودا لنركب الحافلة نحو البحر".

- " لا، لن نحتاج إلى أي من ذلك، سوف نذهب إلى البركة لنصطاد الضفادع".

لقد كان يقصد أن نقصد البحيرة إذن، فمنذ الصغر اعتدنا على قضاء الوقت بجانبها، فهو رفيق طفولتي في النهاية، ولذلك توجهنا نحو طرف من أطراف المدينة، هناك حيث تقبع مقدمة غابة كانت ممتدة، قبل أن تطأها النار في صيف مضى، لم أذهب إلى هنالك منذ سنوات خلت، فلا أعرف كيف حال البحيرة، لكنه أسماها بركة، ولذلك قمت بتصورها بشكلها الجديد انطلاقا من اسمها، ولكنه لم يخطئ إذ أسماها بركة، لأننا وجدناها قد جفت أو تكاد، غلفتها الطحالب وغلفها العفن، جئنا ولم نحمل معنا متاعا واحدا، كان الوقت قبيل الغروب مباشرة، قال توفيق أن الضفادع تنقنق في مثل هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر، الجميع يعرف هذا، وسألته إن كان قد قام بهذا الأمر من قبل، فأخبرني بأنه مر عليه وقت اضطر فيه لأن يصطاد مخلوقات لا يعرف

اسمها، كان يكفي أن يصادف شيئا صغيرا يتحرك، وكان يتأكد من أنه يصلح أن يكون طعاما بمجرد أن يراه يفر من أمامه.

جلسنا على الأرض في مكان مضاء بضوء القمر تماما عند حافة البركة، ورحنا نطالعها بصمت مطبق، وتحدث أحدنا بعد نصف ساعة.

- " لقد أصبحت مثل..."

- " بِركة".

- " أجل".

- " ونحن صغار، كنا نأتي لنستحم هنا بعد أن نقلب مكب النفايات على ظهره".

وضحكت ملئ فمي بعدما تذكرت تلك الأيام التي كنا نقصد فيها المكب للبحث عن النحاس والبلاستيك، لقد كانت أياما جميلة رغم حدتها، توفيق بدوره عاش حياة تضاهي حياة اليتم أيضا بعد انفصال والديه عن بعضهما، وكان قد بقي مع والدته لفترة قبل أن تحضر له أبا آخر، وحينها قرر تركها وزوجها الجديد فيما بقي يتردد عليها من وقت لآخر حينما كانت تشتد به الحاجة، والآن هو حتما لا يعرف أين يقيم أيّ منهما.

- " انظر، هاهي قد بدأت تظهر".

- " أكره رائحتها".

- " لن تكون لديها رائحة وهي مشوية".

- " أجل".

- "هاه، والآن ألن تخبرني عما فعلته؟"

- " ماذا؟"

- " عن السرقة، سرقتك الأولى، أنا متأكد من أنك فعلتها".

" - سرقت طعام قطة".

- " إن لم تخبرني فلن أتحدث إليك حتى نشبع".

- " لقد أخبرتك".

- " انظر، إنني لا أخطط للسخرية منك، بل أرغب فقط في أن أتذكر ذلك الشعور الذي يكون أول مرة، لحظة الانتقال تلك، كيف يكون الإنسان نقيا ثم يغدو مذنبا في ذات اللحظة... حيث يتغير عالمك، وماضيك ومستقبلك، فلا تعود أنت الذي كنته، ما هو الشعور الذي ينتاب المرء وهو يتغير، لحظة الانتقال تلك... إنها بديعة، هي سيئة، لكنها أشبها بالتحرر... التحرر من الانضباط والخلق الحسن، التحرر من الأشياء الصحيحة، أوليس ذلك انبعاثا جديدا؟ لقد فعلتها منذ سنوات طويلة، ولم أعد أذكر، أما أنت فإنك تبدو

وكأنما لو كنت جديدا، ربما أيام ثلاثة، ربما أسبوع واحد، ربما شهر كامل، لكن لا يمكن أن يكون الأمر أبعد من ذلك".

- " لقد سرقت طعام قطط".
- " أعرف أنك لم تسرق من الورشة".
- " لا أذكر أن شيئا انتابني في تلك اللحظة، لقد كان مجرد طعام قطة".
- " فلن تخبرني إذن ."!
- " لقد أخبرتك".

وسكتنا بعدها قرابة ساعة، ثم قام توفيق فجأة وأفرد كيسا كبيرا في يده وراح نحو طرف البركة حتى غاصت قدماه فيها وجعل يمسك الضفادع ويضعها في الكيس بينا أتفرج عليه وأنا أفكر فيما كان يقوله.

19

عاد توفيق بعد نصف ساعة وهو يجر الكيس بين قدميه حتى أوصله إلى البر وألقاه على مقربة ثم سقط متهالكا :

- " لماذا لم تأتي لمساعدتي، الضفادع الملعونة... إنها تهرب بسرعة، وكان من الصعب التحرك في الأرض السبخة، لكنني أمسكت بالكثير منها، انظر، بقي أن نجوع قليلا أكثر حتى نتمكن من التهامها كلها".

- " أجل، ينبغي ألا نتسرع في طهيها حتى لا نشبع بسرعة، لكن هنالك مشكلة صغيرة هنا".

- " أخبرني ".

- " الضفادع، إنها لا تزال حية".

- " لا تقلق، سوف تموت بعد لحظة، إنها سوف تختنق جميعها الآن وسوف ترى ذلك".

ونظرت إليه مثل الأبله فتلقف نظرتي لثانية ثم انفجر ضاحكا مثلما أن دلو ماء انفجر في وجهه، وعندما سكت أخيرا فإنه نظر نحو الكيس وكان داخله يغلي فقال بنبرة تهكم :

- " إنها ليست أسماك كما تعلم، فلن يخنقها الهواء أبدا... لا تقلق، لدي سكين في جيبي، وسوف أتولى ذبحها بنفسي، لكن..."

- " ماذا؟"

- " إنك ما زلت تنظر وكأنك فعلا قد سرقت طعام القطط".

وتنهدت بما أنني كنت فعلا أفكر في ذلك.

- " لقد كنت جادا إذن، يا رجل، كيف ولماذا فعلتها، هل أعدت بيعه؟"

- " وضعته أمام قطتي".

- " لابد أن يكون ثمة يوم يعيش فيه المرء غبيا..."

- " الأمر أعقد من أن أستطيع شرحه".

- " على أي حال..."

- " أخبرني، ألست غاضبا؟"

- " على أي شيء تقصد؟"

- " عن حياتك، الطريقة التي تمضي بها أيامك، وأنت لم تحقق شيئا".

- " لا أدري، لم أعد أفكر... لم أعد أفكر لأبعد من الوجبة التالية، لكنك بدأت تتحدث بطريقة غريبة، لم أعهدك هكذا، كنت في ما مضى تحب الأحاديث المرحة، وها أنت الآن تتحدث مثل شخص متعلم".

- " كل ما في الأمر أنني كنت بحاجة للتحدث إلى شخص ما، هذا كل ما في الأمر".

- " أجل، أنا أيضا أمضيت الكثير من الوقت بمفردي، عندما غادرت هذه المدينة منذ ثلاث سنوات فلأنني لم أجد أحدا أتحدث إليه بالطريقة التي أريدها، أنت تفهم ما أقصد، بات الناس يتحدثون بالنقود فقط، إنك تجري أحاديث بقدر ما تحمل من النقود في جيبك، النقود تجلب الناس من حولك، إذا كنت تملكها فسوف يكون الناس بحاجتك، وسوف يبحثون عنك طوال النهار، هناك في الغرب عملت في ورشة لتصليح الأجهزة المنزلية، كان الناس يتحدثون مع السيد، وكان يتحدث إليهم، كانوا يأتون إلينا دائما، لكن منذ حل هذا الوباء لم يعودوا يتحدثون إليه كثيرا، ثم توقف بدوره عن التحدث معي، الناس باتوا يخافون من تغيير الأجهزة، عندما كانت تتعطل قبل سنتين كانوا يأتون بها إلى الورشة فيلقونها هناك وقد يعودون إليها أو قد لا يعودون أبدا، تلك التي لم يكونوا يعودون لأجلها كانت تدر علينا مالا، لكن الآن لم يعودوا يتخلصون منها، الأسعار ترتفع بشكل جنوني جدا".

- " يمكنني تخيل هذا، لقد أمضيت الأشهر الأخيرة وأنا أبحث عن عمل، منذ حل الوباء فقد بعض الناس وظائفهم، فكيف بمن لم يكونوا في الأساس يملكون واحدة".

- " أترى الآن لماذا لم أعد أفكر لأبعد من الوجبة التالية ."!

- " اسمع، في ذلك اليوم... كنت بالمخزن أجلس في مكتب العمل خاصتي، ليس وكأنني كنت أعرف قانون بنفورد وأفهمه. ولكنني كنت أقوم بالجرد كالعادة، حتى أتى رجل لم أره من قبل وأخذ يسأل عن السيد، ولم يكن السيد موجودا، وإذ بالرجل يخرج حزمة نقود ورقية وضعها على المكتب أمامي وطلب مني أن أوصلها إلى السيد، حسنا حتى اللحظة لقد كان الأمر جميلا، ذهب ذلك الرجل، ورأيت حزمة النقود الجميلة أمامي، كانت بديعة حقا، أتدري ما الذي رغبت في فعله في تلك اللحظة؟ لقد أردت تجربة ذلك الشعور حينما يكون لديك حزمة نقود في جيبك، كان يوما باردا، وكنت أرتدي معطفا ذا جيب واسع، فإذن حملت حزمة النقود ووضعتها بداخله، كان وقت العمل يوشك أن ينتهي، ولذلك قمت عن المكتب لأتمشى قليلا، ربما سرت لخمسين خطوة مثل رجل مهذب، حتى أسقط عامل علبة كبيرة على الأرض فتناثرت منها الأحذية، وحينئذ هرعت لأساعده في جمعها، وحينما

انتهينا كان الوقت يشير إلى الرابعة مساءا، وذهب كل في حال سبيله، وفي اليوم التالي كان الجو لطيفا، وعدت بثوب خفيف إلى المكتب، وبعد ساعتين جاءني السيد، ولم يكن يأتيني بوجه عابس، فقد كنت ذا أهمية، لكنه جاء في ذلك اليوم مثل الشيطان الذي مرت عليه ثلاثة أيام دون أن يجر شخصا للقيام بمعصية... أقسمت له مرارا وتكرارا أنني لم أقصد ذلك".

- " أنت لم ترغب في سرقة تلك النقود يا رجل".

- " أعلم هذا، لكنه أشار نحو كاميرا المراقبة في الأعلى، وقال بأنه سوف يتصل بالشرطة إن لم أظهر النقود أمامه بعد ساعة واحدة، ولذلك ركضت نحو البيت مثل الحصان فأخرجت حزمة النقود من الجيب الواسع وعدت بها نحو المخزن، وعندما سلمتها إلى السيد قال بعد أن تفحصها جيدا، أنت مطرود يا جواد، واحمد الله أنني لم أتصل بالشرطة... هذا كل ما قاله، إن ما قلته له لم يساوي شيئا أمام الفيديو الذي شاهده، لقد رآني وأنا أضع حزمة النقود في جيبي الواسع بملء إرادتي... كيف كان بمقدوري إقناعه بأنني نسيت النقود في جيبي حتى أخذتها معي إلى المنزل، وإلا فإنني أعلم بوجود كاميرا المراقبة فوق رأسي. فما كنت لأفكر في السرقة... كل ما أردته هو قليل من الشعور بالتحرر، أترى ذلك الشعور الذي حدثتني عنه قبل قليل حينما تسرق

أول مرة؟ إنما أردته بطريقة أكثر انتظاما، أردت أن أشعر بأنني آمن، آمن اليوم وغدا وبعد غد وبعد ثلاثة أيام وبعد أربع وبعد عشر وبعد شهر وبعد سنة، تلك النقود كانت لتكفيني سنة كاملة، لكنني رغم ذلك لم أفكر بسرقتها، أقسم أنني لم أفكر بهذا، لكنه رفض أن يدفع لي راتبي قبل أن أغادر، أتعرف ما الذي فعله بعدها؟ لقد أهانني بأن دفع لي راتبي الأخير في شكل عدد من الأحذية..."

- " أووه، هذا كثير يا صاحبي، أقسم أنني حزنت لأجلك، و إلا فقد كان ينبغي عليك أن تفعل أكثر من ذلك".

- " ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟"

- " بدل أن تستدير وتغادر مكان عملك الذي جلست فيه لسنوات عديدة، كان عليك أن تقترب منه مثل رجل مذنب ثم تنطحه برأسك اليابس".

- " أنت لم ترى حجم رأسه، كان رأسي ليتكسر".

- " اضربه على أنفه، بلكمة واحدة، كان عليك أن تضربه على أنفه، ذلك المعتوه لم يكن ليتصل أبدا بالشرطة، أنت تعرف ذلك، و إلا لما تردد لحظة واحدة، تلك المخازن كلها تعمل في الظلام حتى لا تدفع الضريبة، وأصحابها لا يحبون أن تحضر الشرطة عندهم، كان عليك أم تضربه".

- " لقد كلفني ذلك سمعتي في المدينة".

- " كان عليك أن تضربه".

- " أصبحت أشعر بالجوع الآن".

- " إن قلبك أطيب مما يجب، ولذلك تأذيت كثيرا، على أي حال، لن نشعل النار هنا".

- " وأين إذن؟"

- " لقد فكرت في هذا، سوف نذهب عند السكة، أعتقد أن العربة لا تزال موجودة".

20

في هذا الطرف من المدينة، غير بعيد عن البركة، كانت توجد عربة قطار قديمة مقلوبة على جانب، كنا نهرب إليها ونحن صغار لنبيت فيها حينما نفتعل مشكلة في المدينة، الآن وبعد كل هذه السنوات فإنها لا تزال موجودة كما هي، حتى إنها صارت جزء من الأرض والغابة، فقد غرقت في التراب بمقدار شبر كامل، كما أنها اكتسبت لحافا من العليق المشوك، بعد مائتي متر ربما، كان توفيق لا يزال يجر كيس الضفادع خلفه، وحينما وصلنا هناك فقد كان ثمة أناس يجلسون حول نار أقاموها بداخل العربة، كانوا يسكرون ويضحكون بصوت مرتفع، وجرى حوار صغير بيني وبين توفيق قبل أن نُظهر أنفسنا أمامهم، أخبرته بأنها ربما قد لا تكون فكرة سديدة، لكنه قال بأنهم سيكونون ألطف أناس قد نقابلهم يوما، كما أن الضفادع كثيرة، ولن نتمكن من الانتهاء منها كلها بمفردنا، أعرف أن الناس عندما يسكرون يفقدون عقولهم، هذا أمر أعرفه، كما أنهم كانوا أربعة أشخاص بينا نحن اثنان فقط، لكنه قال أيضا أنهم إذا كانوا سيتشاجرون بعد ذلك فلن يقدروا على اللحاق

بنا إذا نحن بدأنا بالركض في الوقت المناسب، طمأنني ذلك قليلا، ثم ذهبنا وظهرنا أمامهم.

قال توفيق وهو يقترب منهم جارا الكيس حتى وضعه عند مرمى أبصارهم، السلام عليكم، ورد اثنان منهم بمثل ذلك، بينما لم يتحدث الآخران أبدا، ولم ينظرا إلينا، أحد اللذان تحدثا إلينا كان اسمه (روكي)، والآخر (بالومبا)، أما الاثنان الآخران فلا اذكر اسميهما، قال (روكي) وهو يرفع زجاجة الشراب نحونا :

- " مرحبا بكما، لكن هل تبحثان عن شيء ما هنا..."

رد توفيق وهو يفلت الكيس من يده :

- " ليس فعلا، لكن لدينا الكثير من الطعام فوق حاجتنا، ونحن نبحث عمن يشاركنا إن كنتم ترغبون في هذا".

- " هاه، ذلك إذن، هل تلك دجاجات أم ماذا؟"

- " أجل، إنها فراخ صغيرة، لكن لدينا الكثير منها، آمل أنكم جياع مثلنا".

- " جياع مثل بالوعة، ومثل مزبلة، وأيضا مثل كلاب ميتة".

وتحدثت إلى توفيق بصوت خافت[:

- " هسس، ما الذي تفعله".

- " دع الأمر لي، سوف يكون الأمر غاية في المتعة، سوف نعبث معهم قليلا لا أكثر، إنهم يشربون منذ ساعة، ولابد أن عقولهم قد نزلت إلى مؤخراتهم في هذه اللحظة، ولن يعرفوا أبدا إذا كان ثمة مشكلة".

وهنا جاء صوت (بالومبا) وكانت عيناه ثقيلتان بحيث لم يستطع رفعهما نحونا :

- " لابد وأنكما سرقتما عنبرا أليس كذلك، واحدا من تلك العنابر الموجودة خلف القصب؟"

- " أجل، لقد كنا هنالك قبل ساعة".

- " فعلتما حسنا، كنت أعمل هنالك في وقت سابق، لكنني نمت ذات ليلة وعندما أفقت صباحا وذهبت إلى العنبر رأيت ألف دجاجة تضع رأسها على التراب مثل الأشياء الميتة، ثم فجأة أصبحت لا أملك الحق في التواجد هنالك مرة أخرى، لقد طردني ذلك العجوز الأحمق، والآن أنتما قد جعلتماه يدفع الثمن، لابد وأنكما شخصان مهذبان جدا، ولسوف نجلس معا جميعا مثل الرفقة لنتناول اللحم ونشرب الشراب ونقهقه حتى يغرب الظلام عنا".

وهنا قلت لتوفيق وكان الشك قد بدأ يتسلل بداخلي :

- " اسمع، الطريقة التي يتحدثان بها، هل أنت متأكد حقا من أن عقولهم قد فسدت؟"

- " بالطبع أنا متأكد، انظر إلى عدد القوارير الفارغة، لكن عندما يشرب الإنسان لفترة طويلة فإنه يعتاد على ذلك، لا يبقى التأثير ذاته، ولا يذبل لسانه مثل أول مرة، لكن هؤلاء... إنهم ليسوا بذي خبرة قد تمكنهم من التفريق بين ضفدع وفرخ دجاجة، ألا ترى إلى الضفادع وهي تنقنق منذ ساعة، لكنهم يؤمنون الآن بأن الفراخ تنقنق، فقط دع الأمر لي وتصرف مثلما أننا سرقنا فراخا".

بعد ذلك جلسنا إليهم وتبادلنا أطراف الحديث لبعض الوقت ثم قام توفيق و(روكي) نحو كيس الضفادع فجراه لمكان أبعد قليلا وفتحاه وأخرج كل منهما من جيبه سكينا وجعلا يخرجان الضفادع ويذبحانها ويلقيان بها فوق صخرة مصفحة، وبعد أنا ذبحا قرابة العشرين ضفدعا قال (روكي) لتوفيق يسأله :

- " لا أريد أن أكون فظا، لكن هل نحن نذبح الفراخ جهة الشرق، هل تأكدت من ذلك قبل أن نبدأ؟"

وقال له توفيق بكل جدية :

- " أجل، لقد تأكدت من ذلك، و إذا كنا الآن مخطئين قليلا بشأنها فإننا لا يمكن بعد هذا أن نخطئها بشكل أكبر، لذلك يتوجب علينا أن نبقى حيث نحن تماما".

- " ما دمت تقول هذا".

كنت أراقبهما وهما يأخذان الضفادع نحونا مباشرة، تاركين جهة المشرق خلفهما، أعرف توفيق منذ كان لا يفرق بين يديه أيهما اليسرى وأيهما اليمنى، ولم أره يوما يقع في مأزق دون أن يكون قد حسب له حسابا، الآن استمرا يذبحان الضفادع بينا التفت أنا نحو النار مع الثلاثة الباقين وكانوا قد كفوا عن الشرب في هذه اللحظة، وقال أحد اللذان لم أتذكر اسميهما :

- " أرغب في أن أتبول".

وقال الآخر بينا تغلبه ضحكة :

- " وأنا أرغب في أن أتقيأ، وأرغب أيضا في أن أرى امرأة بدينة، بدينة مثل فرس نهر، وأيضا عارية مثله، هئ هئ هئ".

وضربه الأول على كتفه براحة كفه ثم قام إلى ركن العربة وتبول قرابة الساعة ثم عاد يتمايل حتى كاد يسقط على النار ثم استوى على مقعده بصعوبة ولوح بيده في الهواء.

- " إنك تستمر بقول هذا، بينما لو نظرت إليك كلبة لخجلت من النظر إليها".

- " أنت لا تعرف، لا تعرف كيف يتغير الشخص حينما يكبر".

- " لكنك لم تكبر بين ليلة وضحاها، لقد استغرقت أربعين سنة، وبالأمس كنت لا تريد التحدث إلى تلك المرأة".

- " لقد كنت أريد التحدث إليها، لكنها كانت تعرف بأنني رجل خمر ولا أملك شغلا".

- " هاه، ولماذا قد يرغب شخص في حمل ملعقة وهو لا يملك طعاما".

- " لم أفهم..."

- " أقول أنها فكرت كثيرا ورأت أنه سيكون من العبث أن تحاول معك".

- " بديع ما تقوله يا صديقي، بديع جدا، غير أنني تمنيت لو كان ثمة طريقة يمكن أن يسلكها الإنسان ليصير أقل روعة".

- " أجل، أرادت أن تنهرك مثل كلب خسيس لتبتعد عن طريق سيارتها، لقد كنت تبدو مثل كلب خسيس جائع".

ونطق (بالومبا) وكان يبدو فطنا أكثر من أي أحد في المجموعة :

- " أنتما تشربان بينا تنهقان مثل الحمير منذ ساعة، وقد جاء هذا الرفيق ليجلس معنا، وليس بمقدورنا أن نقدم له شيئا يشربه، فتحدثا مثل الإنسان و إلا فغادرا المكان حتى لا تفسد علينا اللحظة".

- " اللحظة!! اللحظة!! أي لحظة تقصد، هل هنالك لحظة تفوق التجرع؟"

- " أجل، سوف تكون هناك لحظة بعد بعض الوقت تفوق لحظة التجرع، هل تذكران ما هو اللحم، سوف يكون لدينا لحم بعد ساعة؟"

ونظر الاثنان إلى بعضهما.

- " يمكن أن يكون نوعا جديدا من الخمر أليس ."!

- " لا أيها الحمار السكران، إنه ليس خمرا".

- " أنا أعرف، أنا أعرف... يمكن أن يكون اللحم شيئا يؤكل".

ونظر (بالومبا) نحوي بعينين لا أكاد أرى بياضهما :

- " عليك أن تعذر نفسك عندما تجلس بين الحمير يا صديقي، ولكنك تبدو رجلا متعلما ومهذبا، غير أن الحياة ركلتك إلى هنا، لأنه لا أحد يأتي إلى مثل هذه الأماكن دون أن تؤلمه مؤخرته".

لم أكن أريد التحدث، كنت أكتفي بمشاهدة النار والاستماع إليهم، قد يكون حديثهم يبدو كخراء حديث لكنني استأنست به حقا، وكنت أقارن بينهم

وبين نفسي، تماما كما أفعل في العادة، ولم أكن أرى الحزن في أصواتهم، ولا السعادة أيضا، لكنهم لم يكونوا يشعرون بالأسى على حالهم، فطوال فترة جلوسي معهم لم أرى أحدا منهم يذكر الحياة بسوء أبدا، أما أنا فلا أكاد أجد وقتا لفعل شيء آخر، ربما لأنهم لا يملكون مثلي أحلاما عظيمة، في الواقع هم لا يملكون شيئا غير السعادة المزيفة التي لا أملكها.

بعد بعض الوقت كنا قد اجتمعنا حول النار جميعا، نراقب الضفادع وهي تحترق، كان ثمة عيدان تدخل من مؤخراتها وتخرج من أفواهها، لقد كانت مسلوخة بشكل سيء، لكن منظرها عندما بدأت تحمر وتتيبس بدا بديعا، كان الجميع يتحدثون دون توقف، وكنت أفكر في الضفادع، ورأيت بأنها ماتت ميتة شنيعة، بل عدة ميتات شنيعة، عددتها، ورأيت أنه بعد ساعة سوف تكون قد ماتت خمس ميتات كاملة، إذ أن الضفادع تموت حينما تُذبح وتموت حينما تُسلخ وتموت حينما يُدخل أحدهم عودا في مؤخرتها وتموت حينما تُحرق وتموت حينما تُؤكل، وقد رأيت أنني أفضل منها حظا، لأنه من بين كل تلك الميتات الخمس السيئة لم أرى أن الميتة التي أريد أن أموتها يمكن أن تكون أسوأ من أي واحدة منها، لكنني تذكرت شيئا في تلك

اللحظة، وكأن مصباح الذكاء قد شع في رأسي فجأة وأنار الجدران بداخله، وسألت توفيق إن كان ثم ضفادع لا تزال حية، وهمّ بأن يجيبني، لكن كان قد حان دوره ليجيب عن السؤال الذي كان يدور في المجموعة، فقال وهو يجمع يديه عند صدره بنظرة نعسة :

- " أنا لن أتحدث عن الحياة بشكل مفرط، لكن حياتي... حسنا... إنها مثل امرأة بثدي واحد، أو بثلاثة..."

ضحك لجميع بعد ذلك، حتى وهم سكارى كانوا قد فهموا معنى النكتة لشدة وضوحها، حتى أن أحدهم أدخل قدمه في النار من شدة الضحك.

لم يكن من الواجب على توفيق أن يضحك لأنه كان صاحب النكتة، لكن أنا كان علي فعل ذلك مثل الآخرين تماما، غير أنني لم أفعل، وكان صوتا قد نطق بداخلي يخبرني بأن ما قاله توفيق أكبر من أن يكون داعيا إلى الضحك، ونظرت إلى الضفادع في تلك اللحظة، كانت تستمر بالاحتراق دون أن يظهر منها أي اعتراض على ما يحدث لها، وكأنّ الأمر كان مسليا بطريقة تبعث على الصمت والتفكر، ثم إن تلك النار قد صعدت إلى قلبي وأشعلته مثل

صنوبرة في الصيف وأحرقته حتى خرجت النار من فمي وعيناي وأذناي وأنفي وكل فتحة في جسدي.

21

انتهى العشاء وسرنا عائدين نحو النزل، وكان توفيق قد سألني إن كان ثمة مكان للمبيت فأخبرته أنه لابد وأن نخلق واحدا، ثم رحت أتحسس الضفدع الصغير في جيبي، كان لزجا وكانت قد بدأت تطلع منه رائحة نتنة، وعاد توفيق يسألني عن أمره، ولم أجبه إلا بعد مائتي خطوة :

- " لا شيء، سوف أقوم بتربيته".

ثم لم يتحدث أحد منا بعد ذلك حتى وصلنا إلى النزل، عندما رحنا نصعد الأدراج شعرت بضيق شديد في بطني، ولم أكد أصل لأفتح باب الشقة حتى هرعت نحو الحمام فتقيأت اللحم الذي أكلته، وعندما خرجت وجدت توفيق يحاول فتح باب غرفة العناكب، فقلت له بأنني أغلقتها منذ يومين لكنني فقدت المفتاح في مكان ما في الخارج فذهب يفتح الثلاجة بعد ذلك :

- " بطنك ضعيفة".

- " أجل..."

- " أنت بالفعل لا تملك شيئا يؤكل".

- " لا تبحث بداخل الثلاجة، فهي جائعة أكثر مني وربما ترغب في التهامك".

الآن أخرجت الضفدع من جيبي ووضعته بداخل صندوق العناكب القديم وغطيته بلوح خشبي وعدت نحو السرير فنزعت عنه البطانية وفرشتها على الأرض ثم استلقيت على السرير بينا ظل بطني يغلي من الداخل.

- " هل ستكون كافية؟"

- " بالطبع مادام يوجد سقف فوق رأسي".

- " لا تنسى أن تطفئ المصباح، فلن أقوم من مكاني قبل أن تشرق الشمس".

ومر من الوقت ساعة، وكان توفيق قد أطفأ المصباح واستلقى على البطانية بينا حمل القطة بين يديه وجعل يطيرها في الهواء فوق رأسه، لم أنظر إليه لكنني استطعت أن أفهم ذلك من صوتيهما، كانت القطة تموء طلبا للنجدة، وكان توفيق يخبرني كيف أنه متأكد من أن طعمها سوف يكون بديعا جدا إذا ما دعت لذلك حاجة، لم أُجبه ولم أتحدث إليه بعد ذلك أبدا، نمت ولم أفق إلا وأنا أسمع صوت بوله وهو يتكسر عند باب الحمام المشرعة.

غادرنا النزل إلى غير مكان محدد، كنا نتمشى فقط دون وجهة محددة، لم نتحدث كثيرا، كلانا كان يشعر بسوء بالغ، في العادة كان صديقان ليذهبا إلى المقهى، لكننا سرنا مثل صبيين دون العاشرة، ركلنا الأشياء على الرصيف واصطدمنا بالمارة دون أن نعتذر منهم، قضى توفيق يوما واحدا في المدينة لكنه عرف أنه ينبغي عليه أن يغادر إلى مكان آخر، وعندما وقفنا بالقرب من محطة الحافلات فإنه أخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية ودفع نحوي بواحدة منها.

تيبست من الغيظ واللهفة، جزء مني كان يحب أخذها، والجزء الآخر قال له بلهجة مكابر :

- " دعك، سوف أتدبر أمري".

لكنه رفع يدي المستعدة ودس ورقة النقود فيها وأغلقها.

- " أعرف أنك سوف تتدبر أمرك، ومن حسن الحظ أنه لا أحد يموت من الجوع في هذا البلد، ثمة تقنين لمستوى الفقر، لكن هذه المدينة مبالغ فيها، منذ الأمس نظرت إلى كل ركن ولم أرى مكانا يبدو وكأنه في حاجة ليد عاملة، لكن الناس يموتون كل يوم، واللذين يموتون لن يقدروا على الذهاب

إلى العمل في اليوم التالي، كما تعرف، لهذا لن يطول الأمر قبل أن تصبح بعض الأماكن شاغرة".

غادر توفيق المدينة، لقد ركب حافلة كبيرة، من ذلك النوع الذي لا يكتفي بالعملات النقدية، بل يأخذ منك عملة ورقية مباشرة، ذلك الأحمق، لقد كان يملك نقودا طوال الوقت لكن فضل سرقة قطعة نقدية من رجل تعيس متسول ثم جعلنا نتعشى بلحم الضفادع كريه الرائحة.

وها أنا أذا، نقي مثل علبة تونة فارغة، نقي من الكرامة، لقد وصل بي الحال إلى أن أخذت نقودا من أصدقائي القدامى وأنا في مثل هذه السن المتأخرة، وقفت هناك أراقب توفيق وهو يغادر المكان ليغير موقعه في حربه مع الحياة، لقد ذهب إلى ركن آخر ربما يكون مناسبا أكثر للمواجهة، علّه يجد ثغرة يقدر أن يوجه ضربة من خلالها، أما أنا فلم أحاول فعل ذلك، لقد استسلمت منذ زمن، وعريت صدري للريح المحملة بسهام الحياة وضحكاتها، أعرف أن ما أقوم به يعد خطأ عند من يملكون نقودا في مثل هذه الأوقات العصيبة، لكن الجزء الذي يفترض به أن يفهم هذا مفقود في دماغي أو أنه لا يعمل، وعندما يسقط الإنسان في مثل هذا التفكير الدافئ فإن الدفء يهطل عليه من كل شيء حوله حتى ليقوده مثلما يقود السيل جذع الشجرة، إنني أسير تماما نحو

الهاوية، وأدرك هذا جيدا، لكن الأمر فيه متعة، غير أنني لا أقدر على شرحها.

قضيت النهار أتسكع يمنة ويسرة، ولم أقرر العودة إلى النزل إلا لما تذكرت الضفدع، فابتعت بعض الطعام وقفلت مسرعا نحو النزل مخافة أن يكون الضفدع قد قضى من الجوع أو من ضيق التنفس، دخلت وأسرعت لأرفع الغطاء من على الصندوق فكان لا يزال حيا، لكنه توجه صوبي وراح يرمقني بنظرات نعسة، فحملته وأخذت خيطا وتوجهت نحو غرفة العناكب.

كان من الصعب الوصول إلى النافذة دون أن أفسد بعض الشباك المعلقة، كان بعضها يتقطع في بطني وبعضها في وجهي، وكان عليّ أن أكون حذرا حتى لا تلتصق بي إحداها، كان بعضها بالفعل يقف قريبا من النافذة، وأخذت طرف الخيط بسرعة وعقدته حول بطن الضفدع ثم أخذت الآخر وربطته في الخشبة العلوية بحيث لا يمكن للضفدع أن يذهب لأبعد من إطار النافذة، وسرعان ما بدأ يمشي على الإطار يتجه صوب عنكبوت قريب كان يحاول التسلل إلى الخارج.

أغلقت باب الغرفة وعدت نحو كيس الطعام وكان به رغيف خبز وحليب وبيض وبعض البطاطس، كل هذا كان قد كلفني ثلاثين بالمائة من الورقة ذات فئة الخمسمائة التي أعطاني إياها ذلك الأحمق، يمكن لما ابتعته أن يبقيني حيا حيواناتي لأسبوع كامل، هذا باحتساب أيام الجوع التي يمكنني الصمود فيها بعد انتهاء البيض ورغيف الخبز في اليوم الأول والبطاطس في اليوم الثالث، وذات الأمر ينطبق على كيس الحليب فلم يكن لتشبع به القطة لأبعد من أيام ثلاثة، وهكذا عرفت أنه كان بمقدوري أن أتدبر أمري لواحد وعشرين يوما قادمة إن أنا سرت على نفس النمط في صرف الورقة النقدية، تسعة أيام فقط آكل فيها من أصل واحد وعشرين يوما، على أقصر تقدير، لكن ما حدث بعدها هو أنه لم يمر سوى أسبوعين حتى حصلت على ورقة نقدية أخرى، لكن من فئة الألف دينار هذه المرة.

22

كان ذلك اليوم حارا جدا، وكان الوقت منتصف الظهيرة عندما رحت أستلقي على السرير مثل سمكة صيدت منذ دقيقة، أراقب سقف الغرفة بعينين دامعتان ورأس شريد وبطن يتألم، حين سمعت بوق سيارة مميز، فقمت متيبسا مثل مجرفة يدوية، ألقيت نظرة من النافذة، وكانت السيارة تقف في الأسفل، ولقد طار قلبي من السعادة حتى اصطدم بجدران صدري، أسرعت نحو المرآة فعدلت في وجهي وشعر رأسي ما يمكن تعديله ولو أنه لم يكن شيئا يذكر، ونظرت إلى ثيابي فلم تكن تبدو أجمل من ثياب رجل فقير معدم، كنت أشعر بطريقة ما بأن باب غرفتي سوف يُطرق، لقد تخيلت ذلك وصدقته بطريقة جعلته يحدث، تمنيت ألا يكون قد حدث تغيير كبير في عينيها، أعرف أن هواء الريف ما كان ليمسك نفسه عن تقبيلهما كل صبيحة، توقعت أنها سوف تظهر وهي تغطي وجهها بكمامة مثل كل البشر الذين يملكون مالا لتغييرها كل ساعتين أو ثلاثة، ولأن العارفين يقولون أن المرء نتاج أفكاره فقد سمعت طرقا على الباب تماما بعد مرور ساعة واحدة، وبعدما جفت شعرات رأسي المتطرفة وعادت تنطلق من منابتها مثل

السيوف العربية، وقفت أمام الباب وصدري يخفق بشدة، لأن شوقي لها كان قد بلغ أشده، أخيرا سوف أرى مريم مرة أخرى، وضعت أصابع يدي على المقبض برفق وجذبته بشكل مهذب، تماما مثل عامل فندق يرتدي قفازا نظيفا أبيض.

كان ثمة كمامة زرقاء جديدة تغطي ذلك الوجه الذي وقف قبالتي، وفوقها تماما كانت تقبع عينان متعبتان مثل حبتي مشمش ذوبتهما الشمس، ورأس أشيب قد تضعضع، لقد جاء السيد البخيل بشحمه ولحمه إلى باب شقتي الصغيرة لأول مرة منذ دخلت النزل، كان يضع حقيبة جلدية صغير تحت إبطه الأيسر بينا يمسك مفتاح سيارته بيديه اليمنى، ولقد تحدث قبل أن تنزل عيناي إلى حذائه، قال مغمغما من تحت قطعة القماش الزرقاء التي راحت تتحرك عند مستوى شفتيه مثل أن طفلا صغيرا يركل بطن أمه من الداخل :

- " أين هي النقود التي أخذتها، هاتها بسرعة".

فقلت له مدافعا عن نفسي :

- " لا، لم آخذها يا سيدي، بلي جمعتها لأجلك".

- " لا يهم، هاتها بسرعة".

وهكذا أردت لو أضع راحة يدي بسرعة خاطفة على خده، أو أضع أسفل قدمي بقوة في منصف وجهه، لكنه كان والد المرأة التي أحبها، وصاحب الجحر الذي أسكنه، وهكذا انتهى هذا الحوار القصير بسرعة كما بدأ دون مقدمة، لم يكن هنا منذ أشهر، لكنه جاء ولم يلقي علي السلام حتى، ولذلك دخلت وعدت بالنقود بسرعة وناولته إياها، ظننته سوف يستدير ويذهب بعد ذلك مباشرة، لكنه فتح الكيس وأخذ يعدها ورقة تلوى الأخرى.

لا زال لا يثق بي تماما مثل أول يوم سمع فيه أنني سرقت رب عملي، كنت أعرف أنه عندما يمسك حزمة نقود فإنه يأخذها بين يديه إلى ركن قصي في عقله المظلم ويضعها بين قدميه ويأخذ في عدها دون أن يعي ما الذي يحصل من حوله، ولذلك سألته :

- " هل أتت مريم أيضا؟"

كان يستمر بعدها، وبدا وكأنه رأسه قد راح يتعرق، أما أنا فاتكأت على إطار الباب ورحت أراقبه.

- " لم آخذها، لقد جمعتها بناء على طلبك".

وهنا تيبس مثل آلة تعطلت فجأة وتوقفت عن الحركة ورفع عينيه الخشنتين نحوي وقال مقطبا جبينه :

- " ما الذي قلته؟، أنا لم أطلب منك أن تفعل أي شيء، ولو كنت سأفعل هذا يوما فلن أجعلك تقترب من نقودي حتى مسافة خمسين مترا، أيها الكاذب..."

لا أدري كيف سمعني هذه المرة، لكن أظن أن السبب يكمن في أنني لم أخرج عن نطاق تفكيره.

فهمت حينئذ أن مريم كتبت تلك الرسالة من تلقاء نفسها ودون أن تطلع والدها عن أمرها حتى اللحظة، ربما قصدت بذلك أن تخلق بيننا عملا قد يكون من شأنه أن يرمم العلاقة بيننا ولو قليلا، ولذلك لم أزد على أن قلت له :

- " اعذرني، إنما أردت أن أسهل عليك الأمر، فكما ترى قد رقد الوباء مثل كلب الحراسة عند باب كل منزل، و إذ كان على أحد أن يخاطر بنفسه ويطرق كل أبواب هذا النزل ليجمع نقود الإيجار فمن الأفضل أن يكون شخصا يتمتع بصحة وشباب جيدين مثلي".

وهكذا أنزل الرجل رأسه مرة أخرى إلى نقوده وانهمك في عدها دون أن يقول شيئا، ومضيت أنا في مراقبته، كيف لشوكة أن تنبت وردة، فكرت حينئذ، هل حقا هذا المخلوق الفضيع يكون والد تلك الفتاة الجميلة؟ لقد كان يعد

نقوده مثلما أنه كلب يقلب عظمة، ولو كنت تحدثت إليه حينئذ مرة أخرى لكان قد نبح في وجهي بشراسة، انتظرته حتى انتهى ورفع عينيه الحاقدتين نحوي :

- " أين الباقي؟"

- " أحدهم يمر بضائقة مالية، فكما ترى كل شيء قد توقف في الخارج، لكنه وعدني بأنه سيؤديها في المرة المقبلة، إنها فقط ألف دينار يا سيدي، وسوف أحرص بنفسي على أن يدفعها في العام المقبل..."

كنت أميل على إطار الباب بينا أتحدث إليه مثلما أنني صاحب البيت وهو غريب جاء يسأل أمرا، ولذلك ظل يرمقني بنظرات مقت شرسة بينا يقف بعيدا عند الجدار المقابل، لم أدفع له منذ سنتين كاملتين، وهو لم يسألني إلا عن ألف دينار فقدها من شخص آخر، وكنت أعرف أنه لن يحاول معرفة شخصه، لأنه لم يكن ليذهب إليه ويخاطر بنفسه من أجل ورقة نقدية واحدة، ولقد رحل بعدما رفع سبابته الغاضبة في وجهي :

- " إياك أن تلمس نقودي مرة أخرى، إنني أحذرك، ومن الأفضل لك بعد أن ينتهي هذا الوباء أن تبحث لنفسك عن مكان تبيت فيه، لأنني سوف أقوم بطردك بمجرد أن أعود إلى هنا..."

غرق الرجل القصير في الأدراج بعد ذلك واختفى، فيما عدت إلى الداخل وفي جيبي ورقة الألف دينار التي اغتنمتها. وضعتها على السرير وجلست بجانبها متنهدا، ونظرت بعدها إلى القطة وكانت تلعق ساقيها قريبا من باب غرفة العناكب، ها نحن ذا يا صديقتي، شهر آخر، لقد ضمنا الحياة لثلاثين يوما أخرى كاملة.

23

أنا الآن في الثلث الأخير من السنة التي حددتها، وأعتقد أن خطتي تسير في طريقها الصحيح بشكل مبالغ فيه، لم أسعى أبدا لأن يكون الأمر هكذا، لقد بذلت وسعي لأتخلص من هذا الفقر الذي بات يلتصق بي مثل حبار غاضب، بل إن الأمر أشبه بأن تتدلل فتاة على حبيبها بأن تتظاهر بأنها غضبت منه لأجل شيء صغير تافه فتذهب نحو الباب ظنا منها أنه سوف يهرع لمنعها ويأخذ في التودد إليها حتى ترضى عنه مرة أخرى رغم أنه لم يركب خطأ يذكر، لكن ما يقع لها بعد ذلك هو أن يتلقف ظهرها ركلة قوية تلقي بها خارج العتبة ثم لا تكاد تفيق من الصدمة وترفع وجهها عن التراب حتى تسمع صوت انفجار الباب خلفها مضافا لها شتيمة قذرة.

أنظر الآن إلى نفسي على المرآة ولا أكاد أعرفها، يتعانق عظمي وجلدي كل يوم بشدة أكبر بينا يُسحق اللحم بينهما، قلّ وزني إلى ما تحت الخمسين، وآخر وجبة تناولتها يكون قد مر عليها الآن أسبوع كامل، ثم إنها لم تكن وجبة بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنها كانت شيئا يؤكل، ففي النهاية يوجد أناس لا يؤمنون بأن الأطعمة يمكن تناولها بعد أن يتم تسخينها مرة أخرى،

إنهم يتخلصون من الكسكس والمعكرونة والبطاطس والعدس ولا ينظفون عظام الدجاج كما ينبغي، بل يتركون حوافها مثقلة باللحم، حتى في عز الأزمة، ولقد علمني المشردون كيفية اصطياد مثل هذه الأطعمة من حاويات القمامة بسهولة، ولذلك فلم أعد أخرج في النهار كثيرا، كما أن ملابسي اهترأت بقدر يبعث على الحرج حتى بالنسبة إلى رجل يشهد الجميع على قلة حيلته، ثم إنّ رائحتها باتت أسوأ ربما حتى من السمك، ولو اجتهدت في غسلها فلن يفرق ذلك كثيرا، لأنها شربت من الوسخ والتعب ما لا يقدر الماء على جليه، ولقد مضى أسبوعان منذ غسلت سروالي آخر مرة، وقد استغرقني ذلك يومين كاملين لأنني لا أملك شرفة واسعة، يومان قضيتهما وأنا أتجول في الغرفة بسروالي الداخلي المبعوج بطريقة تشبه أن سائل الأسيد قد أحرقه، قضيتهما وأنا عارٍ وجائع.

مضت أشهر منذ حل الوباء على الكوكب، ومن حينها لم أتناول وجبة تمنعني من التفكير في الطعام لأربعة وعشرين ساعة، أعلم أنني أتحدث عن الطعام كثيرا، لكن فاقد الشيء لا يعطيه، فليس بمقدوري أن أحدثكم عن شيء آخر، ولو كنت أملك من الطعام ما يكفي فإذن لحدثتكم عن الملبس، ولو امتلكت الملبس لربما حدثتكم عن المسكن اللائق، ولو

امتلكت هذه الأشياء الثلاثة فسأحدثكم عن المركب، ثم عن المرأة، ثم عن مدينة أخرى، ثم عن بلد آخر، لكن هذا هو كل ما بوسعي، فالإنسان يتحدث بما يفقده، وبما أنني أفتقد الطعام فبطني هو من يتحدث إليكم في كثير من الأحيان، ولكن لم يبقى الكثير لتتحملوني من أجله.

ـالشهر الثامنـ

قمت في ذلك الصباح الذي أطلت شمسه باكرا جدا وألقت أشعتها مثل السهام الحارقة عبر النافذة، ولحظة أخرجت قدمي من السرير مغمض العينين كدت أدهس بهما القطة، فقد وجدتها تركت السرير وراحت تنام على الأرض، ظننت في البداية أنها كانت تبحث عن البرودة، لكنني وصلت حتى الحمام وعدت منه ولم تكن قد تحركت من مكانها، لأنه كان يفترض بها أن تتبعني وتطالبني بفطورها، كنت ألحظها في الأيام الأخيرة وهي تفرك عنقها مطولا على غير العادة، ظننت أن بها قملا، فألوان أركان البيت وروائحها تبدو مغرية للحشرات الصغيرة، حملت القطة بين يداي لأتفحصها فلم أرى

بها عيبا غير أنها كانت تتنفس بصعوبة، كان الوقت حينئذ يشير إلى السابعة، لم أنظر إلى ساعة الحائط لأن بطاريتها كانت قد نفدت منذ مدة طويلة، لكن إذا اعتاد المرء على أن يستيقظ كل صباح دون أن يكون له هدف محدد إلا لأن الليل قد انتهى فأنه سيكون قادرا على أن يحدد الوقت بشكل عشوائي بحيث لا يضره أبدا إن أصاب فيه أو أخطأ، لا لشيء إلا ليشعر بأنه استيقظ على هيئة بشر.

على النقيض تماما، فإن جاري سعيد رجل مهذب مع مواعيده مثل رقاص الساعة، لا يغالطها إلا إذا أصابه مرض، ولذلك فهو يستيقظ دائما في الوقت المحدد، ويتناول فطوره في الوقت المحدد، ويفتح باب شقته ليخرج إلى العمل في الوقت المحدد، ولكنني رغم ذلك قد وقفت عند بابه حاملا ذلك الحيوان المريض بين يداي آملا أن أحظى بنيل شرف تأخيره لدقيقتين أو ثلاثة لربما يذهب عني ذلك الغيظ الذي يتدفق من أنفي مثل الدم كلما صادفت رجلا يبالغ في ممارسة الحياة مثله.

فتح سعيد بابه بيد واحدة، أجل، بيدة واحد، لقد أمسك القفل وأداره ثم حمل ذات اليد نحو المقبض وجذبه إليه دون أن يلجأ لاستعمال اليد الأخرى لأنها

كانت مشغولة بحمل فنجان قهوة، يا للهول... كانت رؤية فنجان القهوة ذلك قد أصابت عيناي بوخز من الداخل، فلم أذق طعمها منذ ما يقارب السنة، إنني لم أملك أن أتناول الأطعمة الأساسية فكيف بي بالكمالية، لكن رؤية شيء كالقهوة بعد كل هذه المدة وفي أوج جوعي جعلني أتيبس مثل رف معلق.

- " ما الذي تريده؟"

- ...

- "ما الذي تريده يا رجل؟"

- " هاه، صباح سعيد يا سعيد، انظر إنها القطة، هي لا تتحرك، لا أدري ما أصابها..."

وتفحصها الرجل بعينين نعستين للحظة ثم قال وهو يهم بالعودة :

- " هاتها إلى المحل بعد ساعة..."

- " انتظر لحظة، بعد ساعة!! لكنها قد تموت في أي لحظة، ألا ترى أنها لا تتنفس؟"

- " إنني أرى هذا، لكنني إذا تفحصتها ونظرت إليها ليوم كامل فلن يفيدها هذا في شيء، فمثل هذه الأمور تنتهي عادة بحقنة، وأنا لا أحتفظ بأي منها هنا".

انتظرت سعيد عند باب محله حتى الثامنة والنصف، حتى جاء فوضع رزمة مفاتيحه عند قفل الباب وعالجها قليلا ثم دخل وتبعته من دون أن يقول أحدنا شيئا، وضعت القطة على لوح الفحص ريثما يرتدي قفازا، ورحت أجول ببصري في الأشياء حولي، وعندما بدأ بفحصها فإنه كان كأنما يقلب دمية من الصوف على شكل قطة، لم يكن فيها شيء يتحرك، لكنه لم يطل في فحصه حتى راح نحو باب في الخلف ثم عاد من خلاله وهو يحمل قارورة دواء صغيرة ثم أخرج حقنة من درج قريب وملأها من الدواء وعمد إلى فخذ القطة فأفرغ السائل فيه وتركها على حالها ثم ألقى بالحقنة في مكان ما عند قدميه والتفت نحوي قائلا :

- " هذا هو كل ما يمكنني أن أفعله لأجلها، خذها الآن و إذا لم تستعد عافيتها بعد يومين فلا تأتي بها إلى هنا مرة أخرى، لأنه سوف يكون قد مرة عليها يوم كامل منذ أن ماتت بشكل كامل..."

- " هذا كل شيء؟"

- " هذا كل شيء..."

كان هذا كل شيء قدمه سعيد للقطة، ليس وكأنني كنت أنتظر منها أن تفتح عينيها وتموء نحوي شوقا وتقفز إلى صدري في أي لحظة، لكنني أردت رؤية شيء ولو بسيط جدا، إن كرة الفراء تلك لم تكن تتحرك، ولذلك وقفت هنالك لساعتين كاملتين أنظر إلى مخلوقات المحل بأنواعها، ولم يتحدث إلي سعيد بأي كلمة خلال ذلك، إنما كان منشغلا بإطعام الأسماك وتجديد مآكل الطيور وفحص بعض الفئران الصغيرة، لطالما كان محل سعيد مزيجا بين عيادة الحيوانات ومحل بيعها، رغم أنه لا يتقن أيا من الأمرين بشكل كامل، لكن هذا هو كل ما يمكن أن تتحمله هذه المدينة على أي حال، ولذلك فالتجانس بينهما بديع حقا، إذ سيكون خليقا بالمرء إن هو دخل هذا المكان وحظي بخدمة كاملة لائقة، سيكون خليقا به أن يشعر بأن ثمة شيء ناقص، شيء ليس على حاله، شيء ليس كما ينبغي، وهذا ينطبق على كل مكان يضع عند مدخله لافتة يعبر فيها عن نيته في تقديم خدمة ما مهما كان نوعها لسكان هذه المدينة.

انتهت أشغال سعيد على ما يبدو فجأة فعاد خلف مكتبه وقال ناظرا نحوي نظرة ازدراء لم يتكبد عناء محاولة إخفائها :

- " الآن ما الذي تريده؟"

- " إنني أنتظر أن أرى النتيجة".

- " انظر، أعرف أنك عملت شيئا بتلك العناكب، لكنني لا أعرف ما هو تحديدا، لذا دعني أخبرك أن ما أصاب هذه القطة كان من فعل تلك العناكب، ولذلك دعني أذكرك مرة أخرى أن بعض الجيران لا زالوا يأتون عندي، وأنا لم أعد أعرف بما أجيبهم، ولن يطول الأمر حتى تأتي الشرطة لتطرق باب بيتك..."

ذلك الغبي الأحمق، أنا متأكد من أنه قدم لها دواء رخيصا لأنه يعلم بأنني لا أملك نقودا لأدفع له، ثم إنه يقول أن العناكب لدغتها، ولكنني لم أرى في يوم من الأيام عنكبوتا يتحرك في الجانب الذي أرقد فيه، فقد حرصت على وضع حائل تحت الباب يمنعها من التسلل، حسنا، أعرف أنه من الممكن أن يكون محقا تماما فيما قاله، وهذا أمر سيء جدا بحيث لم أكن أريد تصديقه.

لقد شعرت في الأيام الأخيرة بأنني قطعت شوطا كبيرا جدا وأنا أنتقل من الذكاء المفرط إلى الذكاء المتوسط إلى العادي إلى الغباء إلى البلاهة إلى

عقل طفل رضيع ثم إلى رأس حمار ميت، وأرى أنني كلما اقتربت من نهاية السنة كلما وجدتني لم أعد أبالي بالكثير من الأشياء التي كنت أبالي بها من قبل، لكن هذه القطة قد قطعت معي شوطا كبيرا في حياتي، ولم تتركني حتى في أحلك الظروف التي واجهتها، لقد جعنا معا وسهرنا معا وبردنا معا وها أنا الآن أحملها بين يدي إلى البيت وألا أدري إن كانت سوف تصمد ليوم آخر، حقا إنني لا أريد أن أكون وحدي عندما يأتي ذلك اليوم، لكن ربما... ربما من الأفضل لها ألا ترى ذلك.

24

عندما جن الليل في ذلك اليوم وكان الوقت قرابة الواحدة خرجت إلى الساحة الكبيرة حيث لم يكن ثمة أحد في الخارج، وسرت بعدها نحو مركز البريد أين كانت تقف حاويات القمامة المعدنية، أتيت هنالك ونظرت يمنة ويسرة، ثم أخرجت بضعة أكياس بلاستيكية من جيبي ورحت أبحث في الداخل عن أي شيء تكون رائحته سيئة فكنت آخذه بداخل الكيس حتى ملئت أربعة أكياس عن آخرها، حينئذ وقف خيال بجانبي فجأة وراح يبحث مثلي في القمامة هو الآخر.

- " هاه، هل وجدت شيئا؟"

- " أجل..."

- " أعني هل وجدت شيئا يؤكل، أرى أنك تبحث عن قاذورات لا معنى لها، فماذا تنوي أن تفعل بها؟"

- " لا شيء..."

- " انظر، ها هي قطعة جبن لا تزال جيدة، ينبغي على أن أعثر على قطعة خبز أيضا".

- " لحظة، خذ هذه، رغم أنها مبللة قليلا".
- " شكرا لك، لكن ألست جائعا؟"
- " بلى، ولكنني أخذت ما يكفيني".
- " لا لم تأخذ شيئا، كنت أراقبك منذ وصلت إلى هنا".
- " حسنا، أعدها إلي".
- " لا بأس، سوف آخذها فقد أيقظني الجوع قبل لحظة".
- " سلم على الجماعة".
- " سأفعل، لكن كن حذرا فقد تؤذي إصبعك بقطعة زجاج".
- " أجل، سأفعل".

هذا مثال عن أنني لم أعد أبالي بأشياء كثيرة، ففي البداية خرجت نحو الحاويات وأنا أختلس النظر، لكن بمجرد أن أمسك بي زميلي حتى نسيت الأمر تماما، وبدا لي الأمر طبيعيا بشكل لا يصدق، رغم أنني انحدرت في الأمر بشكل جعله هو نفسه يستغرب مما أفعل، أما طريقة حديثي معه فلأنني كنت مرهقا وكنت في أمس الحاجة للعودة بأسرع وقت لتفقد القطة، و إلا فإنّه شخص لا يكف عن الحديث بسهولة.

عدت أدراجي بعد ذلك وأنا أحمل أربعة أكياس من القمامة، وأذكر أنني قفزت مثل اللص عندما أنار لي الطريق مصباح سيارة شرطة كانت ترقد ساكنة عند تقاطع شارع، لكنني استطعت الفرار منها بسهولة، فقد ركضت ركضا عنيفا تحت جنح الظلام حتى وصلت إلى النزل، وعندما وقفت عند مكتب السيد البخيل فقد كانت أنفاسي تكاد تنقطع لأنني ابتلعت أرطالا من الروائح الكريهة التي كانت تنبعث من الأكياس التي كنت أحملها.

عندما دخلت الشقة رأيت القطعة تطالعني بعينين نصف مفتحتين، كانت ترقد على جنبها فوق السرير بسكينة، فرحت كثيرا لأنها أفاقت، ولذلك أسرعت إلى غرفة العناكب فأفرغت الأكياس ونثرت ما بداخلها عند الزوايا ثم رحت نحو الضفدع فرأيته ميتا متيبسا قد ظل يتأرجح وسط الفراغ الذي بين جدران النافذة مثل بندول يتقاذفه الهواء يمنة ويسرة، نزعت عنه الخيط ثم رميته وسط القمامة وأغلقت النافذة وخرجت بسرعة.

بحثت في الثلاجة فعثرت على حليب بارد، أخرجته وأخذت ملعقة صغيرة وأتيت القطة فحملتها بين ذراعي مثل طفل رضيع ورحت أطعمها الحليب

بالملعقة، لكن الحليب كان ينزلق في حلقها من تلقاء نفسه فلم تكن تقدر على ابتلاعه.

قضيت تلك الليلة وأنا أراقبها، فلم يكن في مقدوري أن أنام على أي حال بسبب الحرارة، تمنيت لو أنني كنت أمتلك مروحة، لكان بمقدورها أن تحرك هواء الغرفة الراكد، وكنت قد وقفت عند النافذة في وقت ما من الليل أتطلع إلى الخارج، نظرت مطولا إلى ذلك المقعد فرأيت خيالا يجلس هنالك لوحده، كان يلعب على لوح الشطرنج من كلى الجانبين، في كل مرة كان ينقل الجنود ظل يغير يده بحسب الجانب، يفترض بلاعب الشطرنج أن يكون مهموما وأن تلف رأسه غمامة رمادية تعزله عن العالم، لكن خيال مريم كان يبدو سعيدا، ومبتسما لوحده، كان شعرها منسدلا يغطي نصف وجهها، ولم تكن تأخذ وقتا طويلا في اللعب، إنها تلقف الأحجار بأطراف أصابعها الرقيقة بلطف بالغ، مثلما أنها تمسك روحا تخاف أن تكسرها.

راقبتها لساعة من الوقت، حتى ظهر رجل في الأسفل بدا وكأنه قد التقط أنفاسه منذ لحظة، وراح يتقدم نحوها بخطوات طويلة لكن هادئة، كان يراها تجلس على الرصيف المقابل وهي ترتدي ثوبا أزرق اللون قد نبتت عليه زهور برية، بينما تمسك علبة شطرنج في حجرها ورأسها منكس مثل عنق وردة.

بمجرد أن جلس إليها حتى راح يسترق منها نظرات تفضح ما بداخله، إن عينيه كانتا تراقبانها بحب غامر، فيما كانت هي تلاعبه مثلما أنه خصم ينبغي عليها أن تهزمه بسرعة، لكنها كانت تحافظ على ابتسامتها رغم ذلك، لا بل زادت عن السابق، ربما أحبت قدومه، لست أدري، لكن ظهر لي قلبيهما وكانا لا يتشابهان في شيء أبدا، كان قلبه ينبض بشدة وكأنه يريد الانطلاق بعيدا، وكان قلبها هادئا ولطيفا والجو ربيعي من حوله، في لحظة ما سقطت من عيني دمعة، ليس شوقا لمريم فقط، بل لأن أمرها يفتح في رأسي بابا نحو الجحيم، ذلك أنني كلما تذكرتها إلا وجاء سيل من الأفكار المقيتة فأتذكر ضعفي وقلة حيلتي وأرى بُعد المسافة بيني وبينها.

لم أنم في تلك الليلة ولو لدقيقة واحدة، لكن عندما حل الصباح خرجت تاركا القطة لوحدها وتوجهت إلى طرف المدينة، حيث أوقفت مائتي سيارة ربما، قبل أن تتوقف أمامي شاحنة صغيرة.

كانت الشاحنة تهتز بنا على الطريق المتربة التي تنطلق من طرف المدينة مثل الذيل الطائش، كان السائق رجلا في الخمسين ربما، كنا متقاربين، وكان بطنه يتدلى فوق حجره، رغم أن أمارات المسكنة تبدو ظاهرة عليه، ظل وجهه يتعرق بينا يسعل دون توقف، وبعد مائتي متر تحدثنا لأول مرة :

- " أين تذهب؟"

- " إلى المرملة، مرملة السيد أحمد..."

- " أعرفها، أحاً أحاً أحاً... وأنا ذاهب إلى هنالك أيضا".

- " حقا ."!

- " إذن أنت تعرف السيد أحمد كما يبدو..."

- " أعرفه بالفعل، لكنني لن أتحدث عنه بشكل طيب إن كنت ستسأل".

- " وأنا أيضا أحاً..."

كان واضحا أنه مصاب بالمرض، لكن أمرا ما دفعه للخروج إلى العمل، فقد كان جبينه يتعرق ويحترق، وبدا لي وكأن نارا تسعر في صدره.

- " كم لديك من الأطفال إذن؟"

- " ثلاثة أطفال وبنت واحدة..."

- " ليباركهم الله".

- " آمين، أحاً أحاً، وأنت؟ أحاً".

- " أنا! لدي بنت وحيدة..."

- " ليباركها الله أيضا، لكن لابد وأنكما تمنحانها الكثير من الحب والعناية".

- " نحن؟"

ونظر إلي نظرة سريعة ثم عاد بعينيه المريضتين نحو الطريق أمامه.

- " أنت وزوجتك ."!

- " آه، أجل، لابد من ذلك، ففي النهاية لا نملك غيرها، رغم أنها تعاني المرض في هذه اللحظة، لكن أنا متأكد من أننا لو امتلكنا ثلاثة أطفال آخرين فسوف نمنحهما الكثير من الحب والعناية أيضا بالشكل نفسه".

- " ستفعل، بالفعل ستفعل... حتى يترك أحدكما الآخر، ثم لا تعود بعدها قادرا على النظر في وجوه أطفالك، لكن من الجيد أن أمي لا تزال موجودة، أحأ... وهي الآن تعتني بالأطفال في المنزل، رغم كبر سنها".

أخبرني بعد ذلك أن زوجته قد توفيت، لقد أخذها الوباء أيضا _:" منذ أسبوع كامل، أحأ... وها أنا الآن أهيم مثل رجل قطعوا ساقيه وذراعاه وتركوه يزحف مثل الدودة بين الركام والأتربة، إنه لأمر مرهق..."

- " يكون أشد إرهاقا على أحد العضوين المتشابهين في الجسد إن تركه العضو الذي يشبهه".

- " فعلا... يبدو وكأن لديك عملا مع السيد أحمد هل تعرفه منذ مدة طويلة؟"

- " ليس فعلا، لكنني عرفته بما يكفي ليجعلني أدين له بمبلغ من المال".

- " وأنت أيضا ."!!

- " هل ترى نظرة الشحوب على وجهي؟"

- " أجل".

- " إنها من ذلك، ولسوف أفقع عينه إن لم آخذ نقودي منه بعد ساعة".

- " أووه، أحأ أحأ أحأ... إنك تأمل كثيرا، فأنا أدين له بأجرة نقل عشرين حمولة، أحأ... وهو يحب أن يبقي على هذه المسافة بيننا، هل تفهمني؟"

- " هذا لأنه يبرع في ربط الناس حوله، لكنني فكرت في شيء ما هذه اللحظة، و إذا كان بمقدورك أن تساعدني فسوف أسترد نقودي منه بسهولة".

- " طبعا، فقط أخبرني كيف بمقدوري أن أساعدك؟"

بعد نصف ساعة من العمل استطعت ملأ الشاحنة أخيرا، وعندما انتهيت شعرت أنني على وشك الموت، فلم أعمل منذ مدة طويلة، جاء السيد أحمد نحوي وأخرج من جيبه عملة معدنية وألقاها إلي.

أمسكت القطعة النقدية بين يدي دون أن أنظر في وجهه، وقفل هو راجعا وكأننا لم نعرف بعضنا البعض قط، فقد زاد الفارق بيننا منذ آخر مرة، ولو لم

يخبره الرجل صاحب الشاحنة بأننا نتنقل معا فإذن لما سمح لي بأن أؤخر عمله كل هذا الوقت.

خبأت العملة النقدية في جيبي وتفحصت مواضع الألم في جسمي ثم سرت نحو الشاحنة.

بعد دقيقتين جاء سائق الشاحنة وجلس خلف المقود وأدار المفتاح في مكانه.

رحنا بعد ذلك نعود أدراجنا نحو المدينة بحمولة من الرمل الأصفر، في موضع من الطريق ما سألني السائق عما إذا كنت قد استردت نقودي فأجبته قائلا :

- " أجل، أجل... إنها في جيبي تماما".

ونظر إلي لنصف ثانية :

- " سعيد لأجلك..."

وحينئذ رأيت بريقا في طرف عينيه، وكأن دمعا كان يترقرق فعرفت أن به خطبا.

- " أنت أيضا ينبغي عليك أن تكون حازما معه، تحدث معه بصوت مرتفع وقم بتهديده، أظهر له أنك لا تملك شيئا لتخسره، وأنك مستعد لأن تسلك معه أي منعرج، ثم احكم قبضتيك حتى يراهما..."

- " هأ هأ هأ.... هأهأهأ... ليت... ليتني أستطيع التظاهر بهذا... أحأ أحأ أحأ أحأ..."

- " هو مجرد تمثيل كما تعرف، لكنه يؤتي ثماره كما ترى... أولئك الرجال أصحاب النقود يصبحون أقل شراسة مع مرور الوقت، فكلما نمت ثروة الواحد منهم كلما نسي كيف يستعمل أصابع يديه في شيء آخر غير فرز النقود وعدها".

- " لا، لا... المشكلة ليست في صاحب المرملة، لكنني ربما أكون على وشك خسارة كل شيء فعلا، فأنا مريض كما ترى، و إذا مت فسوف أترك خلفي أطفالي أحأ أحأ... رفقة أحأ.. رفقة والدتي العجوز، وسوف يتحتم عليهم رفقة السعي للحصول على الطعام أن يوفروا ثمن إيجار المنزل في نهاية كل شهر بمفردهم".

- ...

- " انظر، لست خائفا من الموت فنحن مسلمون في النهاية، لكنني لا أعرف ما الذي قد يصيبهم إذا رحلت عنهم هكذا فجأة، وأخاف أن يلقي بهم صاحب المنزل إلى الشارع..."

وهنا بالفعل سقطت دمعة من عينه وأخذ يسعل بعد ذلك حتى ظننته سوف يلفظ روحه، وعندما دخلنا المدينة سألته عن عنوانه تحسبا لأي شيء في المستقبل، ثم افترقنا فذهب يأخذ الرمل إلى صاحبه ورحت أنا نحو محل قريب فاشتريت حليبا وجبنا وخبزا حتى استنزفت القطعة النقدية بالكامل، وعدت بعدها نحو النزل مباشرة.

25

تكون قد مرت بضع أيام منذ حصلت على تلك القطعة النقدية التي أطعمت بها القطة، ثم إنني أطعمتها بشكل يدوي بالكامل، فقد كنت أفتح فمها وأضع بداخله فتات الخبز المبلل بالحليب ثم ألحقه بالماء حتى ينزلق في جوفها، لكنها رغم ذلك لم تستعد عافيتها، رغم مرور خمسة أيام أو ستة لم أتناول أنا فيها شيئا غير ما كنت أجنيه من القمامة، وها أنا الآن أجلس أمامها في آخر الليل أراقبها بصمت وهي ترقد على السرير ميتة، رأيت في تلك اللحظات أننا كنا متشابهين جدا في بنية جسمينا، فقد كانت عظامنا تظهر بارزة، الحق أنني كنت قد خلعت قميصي بسبب الحر الشديد في الغرفة، رغم أن البعوض كان يقرض جلدي بلا توقف، نظرت إليها ساهما وأنا أرخي يداي في حجري وهما ترتعشان بشدة، كان حلقي يختنق غيظا وكمدا بسبب ما كان يراودني من أفكار في تلك اللحظة، كان الأمر أشبه بأن مائة ألف ثعبان مصنوع من الدخان الأسود كانوا يتدافعون في رأسي، ثم إن عيناي كانتا تحترقان بحرارة غريبة ورغم ذلك فلم تسقط منهما دمعة واحدة،

نظرت إلى السكين التي كانت على الأرض لوهلة، ثم أغمضت عيناه وأسندت رأسي إلى الجدار ورحت في نوم مصطنع.

لقد قتلت القطة بيداي الاثنتين، لم تطاوعني نفسي لقتلها باستعمال السكين فألقيته أرضا وأحكمت قبضتاي حول عنقها حتى ارتعشت شفتاي من ارتخاء جسمها، حينئذ عرفت أنني قتلتها، وتركتها على السرير وتراجعت للوراء مهدهدا حتى تلقفني المقعد.

ليس وكأنني خططت للأمر منذ فترة طويلة، لكنني أخبرتكم بأنني انتقلت من الذكاء إلى الغباء إلى رأس حمار ميت، ليس الأمر وكأنني أردت تخليصها من العذاب الذي كانت فيه لكن.. وكأن توفيق بكلامه ذلك قد ترك بيضة في رأسي لتفقس مع مرور الوقت، لقد قال لي في ذلك اليوم أنه قد يأتي وقت أضطر فيه لقتل القطة من أجل أن آكل، كان حديثه في تلك اللحظة أشبه بقيء وقع في أذني، لكنه كان محقا، فتناولي للضفادع كان مجرد بداية فقط.

خلال الأيام الماضية ربما اقتربت من الموت لعشر مرات على الأقل، أمعائي كانت تتقطع، وكنت في كل مرة أضع قدمي خارج السرير إلا وأصاب بالدوار من شدة الجوع والوهن اللذي أصابني، فلم أكن أملك غير الماء

والقليل من الخبز العفن ذا اللون الأخضر، كما أن تعب الأشهر الماضية قد تراكم في جسدي وأخرج عصارته.

أقولها مجددا، ليس وكأنني أضع الأعذار هنا، لكنني أحاول أن أصف الأمور كيف ولماذا وقعت دون تحريفها، ولذلك ما أود إيصاله هو أن حالي لم يكن بالسهل أبدا، فقد كنت أهذي في أحيان كثيرة، وعندما كنت أقترب من النافذة لأستنشق بعض الهواء النقي بعد أن تكون رئتاي قد تشبعتا بالروائح النتنة المنبعثة من غرفة العناكب فإنني أرى وكأنما ثم صحراء في الخارج، صحراء من كل الجهات، ثم تأتي صخورا كبيرة الحجم تمر مسرعة دون أن تتحدث مع بعضها، وحينئذ أدرك أنني إذا خرجت نحوها فإنها سوف تدهسني دون أن تعرف بذلك، فكنت أعود أدراجي نحو السرير لأستلقي بجانب القطة.

فتحت عيناي بعد ذلك وراقبت جسد القطة ربما لساعة، فعاد شريط في رأسي ليذكرني بكل ما مررنا به سويا، كل السنوات التي قضيناها معا جاءت أمام عيني في لحظة واحترقت مثل ورقة بيضاء ضعيفة، لقد خنقتها مثلما قد يخنق أحدنا وسادته بدم بارد، وها أنا الآن عاجز عن إكمال ما بدأته، وعندما

بدأ الدم يتدفق مرة أخرى إلى رأسي ووعيت تماما بما فعلته، حينئذ شعرت أني عقلي على وشك أن يتشنج ويصيبه تلف لا شفاء منه أبدا، فقررت ألا أفكر في الأمر حتى لا أجن في لحظة، كان عليّ أن أتظاهر بأنني إنما خنقت وسادتي، وأنني لم أمتلك قطة في حياتي أبدا، وحاولت أن أقنع نفسي بذلك ريثما أتخلص من الوسادة وأبعدها تماما عن ناظري.

ولذلك قمت بسرعة فأتيت بكيس بلاستيكي ووضعت الوسادة بداخله ومشيت بها نحو الخارج.

مشيت في ظلمة الليل أتأبط الكيس تحت إبطي واضعا يداي في جيبي سروالي وكأنني أحمل جريدة، وعند أول حاوية قمامة صادفتها ألقيت الكيس بداخلها وأكملت سيري، لقد كانت مجرد وسادة متسخة تخلصت منها، كان الوجه البريء لتلك القطة يحاول التجسد أمامي مرارا وتكرارا، وكنت أطفئه في كل مرة مثل نور شمعة قبل أن يستفحل ويحرق جدران البيت بالكامل، كانت قدماي تنقلانني بسرعة كبيرة بين الأزقة والشوارع، فلم أهتم هذه المرة لأمر الشرطة ولم أحاول تفقد الطريق قبل أن أسلكها، كنت فقط أمشي دون وعي وأبدل الخطى السريعة حتى دخلت الغابة.

تجولت حول البركة وأنا أحمل كيسا عثرت عليه في مكان قريب ورحت أجمع الضفادع مثل آلة حاصدة، لم أكن أعي ما أفعله، كنت فقط أريد أن آكل، في لحظة ما شعرت أنه سوف يغمى علي وأنني على وشك أن أسقط في ماء البركة الذي لم يكن يصل إلى ركبتاي وأغرق، ولذلك حملت ما جمعته وسرت عائدا بسرعة.

في بادئ الأمر وعندما خرجت من بين الأجمات لمحت جماعة من الناس جالسين على حافة العربة المقلوبة، كان الظلام يعم المكان ولذلك لم أستطع التعرف إلى أي واحد منهم من تلك المسافة، ورحت أسير نحوهم، وفجأة رفع أحدهم ضوء قداحة في وجهي، كان شخصا لم أره في المرة السابقة، لكن كانت عيناه حمراوان تسيلان بالدمع فسألني قائلا:

- " من تكون، وما الذي جئت تفعله هنا؟"

ثم جاء صوت من الظلمة يقول بعده :

- " هذا هو الشخص الذي كنا نبحث عنه، لقد جاء بقدميه إلينا، أمسكوه ولا تدعوه يهرب..."

ثم لم أشعر بعدها إلا وعدد من الأيدي قد قيدتني ثم راح رجلان يدفعانني نحو العربة دفعا، وبينا تأتي نحوي الشتائم بشتى أنواعها أجلسوني على

الصفيحة المعدنية ووقفوا جميعا حولي مثل المسامير الغاضبة، ثم جاء من بين الظلام وجه (روكي) الذي تذكرته بصعوبة.

- " ها أنت ذا، مرحبا بعودتك، لكن أين صديقك الآخر، ألم يأتي معك؟"

وظهر أيضا (بالومبا) وهو يحمل نصف سيجارة محروقة في يده :

- " لقد أحضر لنا المزيد من الضفادع..."

قال ذلك ثم جاء نحوي وركل الكيس فمزقه فانطلقت الضفادع التي بقيت سليمة تنط وتتقافز وتنقنق يمنة ويسرة.

- " أيها اللعين، أتظن أننا كلاب جائعة، حتى الكلاب الجائعة لا تأكل الضفادع... الآن سوف تدفع الثمن".

وحينئذ قلت وأنا أنظر إلى (روكي) بوجه شاحب وكان يبدوا أكثرهم حكمة بعدما أدركت أنني واقع في مشكلة كبيرة :

- " انتظر لحظة، في تلك الليلة..."

أردت القول أنهم في تلك الليلة إنما قد وافقوا على تناول الضفادع بإرادتهم، لكن لم أستطع قولها، فقد رفسني أحدهم بحذائه على وجهي بقوة، ثم انهالت علي الشتائم والضربات في كل موضع، ولا أذكر أنني شعرت بأي

ألم بعد أول ضربة، إنما أغمضت عيناي وحميت وجهي بيدي وانكمشت مثل الدودة التي أُخرجت من ترابها.

تْركت وحيدا أصارع الموت في جوف الليل بعدما تعرضت لضرب مبرح، كان وجهي حينما أفقت ملتصقا بالأرض بينا رأت عيناي أول ما فتحتهما ضفدعا يجلس تحت ضوء القمر على مقربة يطالعني بعينين هادئتين بينا تنتفخ حنجرته الفضية وتتقلص، وعندما رفعت رأسي بصعوبة عن الصفيحة المعدنية وحركت جسمي فقد أحسست بأن عظامي قد تضاعف عددها وضاق بها جسدي.

قمت بصعوبة ورحت أسير خارج العربة، لم أكن أستطيع الرؤية جيدا، ولذلك كدت أدهس ضفدعا آخر غير أنه هرب من بين قدماي في آخر لحظة، نظرت يمنة ويسرة فلم يكن ثمة أحد، لكن كان واضحا أن الليل يوشك أن ينقضي، وبعد خطوتين أو ثلاثة رأيت فأرة كبيرة الحجم تخرج من كيس بلاستيكي ثم سرعان ما غابت في أجمة قريبة.

عندما فتحت الكيس كان بداخله قطعة خبز وقطعتان من النقانق، أخذتهما بيد واحدة ورحت أضع منهما في فمي بينا أمسكت بطني بيدي الأخرى وأنا أجر قدماي نحو الأجمات بصعوبة.

عندما وصلت إلى مدخل النزل كان الضوء بالفعل قد انتشر، ولذلك حاولت جاهدا أن أصعد الأدراج بسرعة قبل أن يخرج أحدهم ويراني على تلك الحال المزرية، كنت لا أتم درجين أو ثلاثة ألا وأضطر لأخذ قسط من الراحة، فرغم أنني استعدت قليلا من طاقتي بتلك الوجبة إلا أن جسدي كان يتكسر منه شيء في كل خطوة.

عندما وقفت أمام الباب أخيرا أخذت وقتا لأضع المفتاح في مكانه، ثم دفعته بكتفي وانزلقت مع الجدار حتى بلغت السرير فسقطت عليه ميتا ولم أحاول أبدا أن أفتح عيناي بعد ذلك حتى أخذني النوم عن العالم.

26

بعد ثلاثة أيام وقفت أمام المرآة صباحا أطالع نفسي مثل الأبله، كان ثمة بقعة زرقاء تحت عيني اليسرى، وكدمة على جبيني وجرح يوشك أن يندمل في شفتي السفلى، كان وجهي بالمجمل يشبه صخرة بحجم حبة قرنبيط، عندما أنزلت عيناي لأسفل قد رأيت عظام صدري بارزة والجلد محمر عليها، ثم شردت بعد ذلك في لون القميص الأبيض الداخلي الذي تحول لونه إلى الأصفر لشدة ما أفرطت في استعماله.

كنت أستعد في تلك اللحظات للخروج لكنني عندما بحثت عن حذائي لم أستطع العثور عليه أبدا، ثم تذكرت أنني قد عدت حافي القدمين من الغابة في تلك الليلة، فقد سرقه واحد من أولئك الجماعة بعدما ضربوني حتى أفقدوني وعيي، رغم أنه كان في حالة يرثى لها.

لبست نعلي الممزق بعد ذلك وسرت نحو الخارج، كانت الآلام قد بدأت تختفي، وصار بمقدوري أن أمشي مشية سوية دون أن يلحظني أحد من مبعدة، لم أكن على يقين من أنني سوف أعثر عليه في مثل ذلك الوقت من

الصباح، لكنه كان هنالك فعلا، لقد صلى الفجر بالناس وجلس يذكر الله حتى طلعت الشمس ثم خرج إلى الحديقة.

وجدته يسقى الأشجار بدلو صغير في يده، وعندما رحت أمرّ من خلف الجدار القصير فإنّه لاحظ وجودي فابتسم ووضع الدلو على الأرض وجاء نحوي.

ذهبنا بعدها فجلسنا على كرسي الحديقة فبادرني بالحديث قائلا :

- " كيف حالك؟"

ومررت راحة يدي على خدي المتورم دون أن أشعر، لكنني قلت بعقل واعٍ رغم ذلك :

- " أين تقصد، في الخارج أم في الداخل؟"

- " أحب أن أعرف كليهما".

- " سأقول إذن أن جسدي هو مرآة روحي في هذه اللحظة، فهي مضروبة ومتورمة تماما مثل وجهي..."

- " ليكن خيرا إن شاء الله، لكنّ وجهك آيل للشفاء، فهل يحدث هذا أيضا في الداخل؟"

- " لا أظن هذا، ربما تعرضا للضرب معا، لكن أحدهما تأذى أكثر بكثير من الآخر..."

- " وهل ستخبرني بما حدث لك؟"

- " اعذرني لكن ليس في هذا فائدة، ربما جئت فقط لأسألك بعض الأسئلة..."

- ...

سكت الشيخ هنيهة، وسكتُّ معه.

- " هل يوجد حد معين من الذنوب ليصل إليها الإنسان حتى لا تُقبل توبته؟"

- " لا..."

- " هل الجواب بهذه البساطة؟"

- " أجل، مادام الإنسان على قيد الحياة ولم يغرغر".

- " أنت متأكد؟"

أذكر أن الشيخ قد تبسم ضاحكا في هذه اللحظة.

- " و إذا قتل حيوانا أليفا لم يحاول أذيته؟"

حتى اللحظة لست أذكر ما قاله، فبعد أن طرحت عليه السؤال مباشرة انطفأ عقلي بسبب ذلك المشهد، لكنني تلقفت آخر كلامه.

- " عليك أن تأتي إلى المسجد يا جواد، فكما تذهب إلى المستشفى لتعالج جراح بدنك كذلك ينبغي عليك أن تدخل المسجد لتعالج روحك، إنه مستشفى الأرواح، المستشفى الذي لا تضطر فيه لأن تدفع دينارا واحدا فكل الأدوية التي فيه تكون بالمجان بمجرد أن تطلبها..."

- " لكن..."

- " لكن هذه، يحب الشيطان أن يسمعها، إنها تمنعك عما ينبغي أن تُقدم عليه، لكنني فعلت كذا وكذا، لكنني أشعر بكذا وكذا... و إن يكن "...!!

- " أنت محق".

- " لا يكفي أن تسمع الحق، فهو نصف النجاة فقط، ونصفها الآخر يكمن في تطبيقه".

- " لدي سؤال آخر..."

- " إني أسمعك".

- " الآن يوجد أثرياء وفقراء في العالم، الأثرياء بمقدورهم أن يكتسبوا الحسنات بسهولة، فماذا بأيدينا نحن أن نفعل؟"

- " أعرف ما الذي تريد قوله، فأنت تتساءل الآن أين هي العدالة في هذا الأمر، لكن قبل أن أجيبك، هل أنت حقا متأكد من أن الأثرياء بمقدورهم أن يكتسبوا الحسنات بسهولة؟"

- " أجل".

- " إذن ما الذي يمنعهم من فعل ذلك؟"

- " لا أفهم؟"

- ...

لم يتحدث الشيخ بعد ذلك، ولم أفهم مراده من السؤال في تلك اللحظة، لكنني الآن على يقين من أنه لو تحدث لقال لي " فقط أنظر إلى نفسك، أنت هدف واضح، فهل ما زلت تظنّ أنّ الأمر سهل عليهم؟"

قلت :

- " ليس من السهل علي أن أتخيل الأمر..."

- " ليس من السهل عليك تخيل الأمر لأنك لا تريد أن تتخيله، لأنك تكرههم، تظن أن بمقدورهم فعل كل شيء بسهولة لكنهم لا يرغبون في ذلك، أنت محق تماما، وهنا تكمن المشكلة، أنهم لا يرغبون في ذلك... إنها صدورهم التي أظلمت واكتسح الرماد جدرانها فصيرها مثل المداخن، إنه ليس

من اليسير عليهم أن يرغبوا في التصدق بأموالهم، لكن أنت لا يمكن أن تكون مثلهم، إنه ليس بمقدورك أن تتكبر على أحد أو تحتقر أحدا أو أن تمتنع عن مساعدة أحد، أنظر كمّ المعاصي التي تعجز عن فعلها لمجرد أن فقير فقط..."

ضحكت بمرارة.

- " إن كان هناك أمر أريد منك ألا تفعله فهو أن لا تفكر في أن الله غير عادل، و إلا فما غاية كل هذا الخلق إن ساوى بينهم جميعا؟، كيف سيختبر أحدنا بالآخر؟ كيف سيحتاج شيء ما حينئذ إلى شيء يقابله؟ ثم هل كنت تحب أن تكون حبة رمل في صحراء شاسعة لا ترى فيها غير حبات الرمل الصفراء المتناسخة التي تشبهك عبر مد البصر، أم تراك كنت ستحب أن تكون بركة ماء وسط غابة خضراء متنوعة، فيها التراب والشجر الذي ينبت على التراب والطيور التي تسكن الشجر، والعشب والأرانب التي تأكل العشب والثعالب التي تأكل الأرانب والكلاب التي تطارد الثعالب والصياد الذي يأمر الكلاب والحشرات التي تراقب الصياد من فجوات جذوع الشجر، والضفادع التي تراقب الحشرات بصبر كبير من على أطراف البركة... أترى الفرق بين الصحراء التي هي انعكاس لعالمك الذي تريده وبين الغابة التي

تمثل صورة العالم الذي أراده الله وأنشأه، فالتنوع ينشئ الحاجة، والحاجة هي المغزى من وجودنا، وحينما تكون إلى الله فهي تكون في أبهى صورتها وأنقاها وأفضلها، والإنسان الفقير عادة ما يتذكر حاجته إلى الله أكثر من غيره وكلما فعل ذلك كان خيرا له، ثم إنّ الإنسان غير مطالب بأكثر مما يقدر، وأنت إذا كان لديك جبل من ذهب فعليك أن تعيش وتعبد الله بما يناسب ذلك الجبل ثم ستحاسب عليه كله، و إذا كان في جيبك دينار واحد فعليك أيضا أن تعيش وتعبده بقدر ذلك الدينار الواحد ثم ستحاسب عليه فقط... الوقت يمضي على الجميع دون استثناء كما تعلم، وقد يمر عمر المرء وهو ينتظر أن يتحسن حاله فلا يتحسن، وحينئذ يكون قد خسر الأمرين معا..."

- " يمكنني أن أفهم ما تقوله".

- " أعرف أنك طيب القلب جدا، وأن كل ما تحتاجه هو مجرد دَفعة مناسبة، وحتى ذلك الوقت حاول أن تهيئ نفسك من خلال تجنب القيام بأمور غير صالحة".

- " حسنا..."

- " إنني أتحدث عن الكدمات التي على وجهك..."

- " إنه لم يكن بذلك السوء حقا..."

- " ينبغي عليّ الآن أن أذهب لأبتاع شيئا للمنزل، ولكنني سوف أنتظرك، ولسوف يكون واحدا من أسعد أيام حياتي عندما أراك تتجاوز عتبة تلك الباب..."

كان يشير بسبابته نحو باب المسجد الخشبية المغلقة، ونظرت مع طرف إصبعه.

- " لن يطول الأمر كثيرا حتى أعبرها..."

ولقد دعا الله أن يحدث ذلك، ولكنني أضفت في قرارة نفسي حينئذ " واقفا أو ممددا، لا أدري، لكنني متأكد من أن الله سيستجيب دعائك..."

تركت الشيخ يذهب في شأنه وعدت أتقفى أدراجي من حيث جئت تماما، وعند اقترابي من النزل وبينا كنت أمسك ورقة نقدية بإحكام حتى لا يلفظها جيب سروالي الذي كان يصرخ منها فزعا، إذ بي أرى مريم وهي تخرج حقائبها من صندوق سيارة أجرى لتحملها إلى الداخل.

27

وقفت خلف عمود الإنارة لأختبئ وأراقبها مثل الحمار خلف الشجرة، وعندما تأكدت من أنها هي بشحمها ولحمها فقد دعوت الله الذي لم أسجد له منذ كنت مراهقا ألا تراني.

عندما ذهبت سيارة الأجرة تركت العمود ودلفت مسرعا إلى النزل، جريت عبر الأدراج رغم الجوع والألم وقلبي الذي كان ينبض مثل طبل راح يُضرب ضربات سريعة بدائية حتى انتهيت إلى شقتي فأغلقت الباب بإحكام وسقطت على السرير وألصقت عيناي بالسقف ولم أتحرك لساعة بعد ذلك.

ولما مال وجهي عن الوسادة فقد رأيت باب غرفة العناكب وفجأة تذكرت زوجتي التي تركتها معلقة عليها في الجانب الآخر منذ أشهر.

قمت بعد ذلك بنصف ساعة وفتحت الباب فانبعثت من الغرفة رائح كريهة وغبار خنقني حتى السعال، ثم لما أمعنت النظر فقد رأيتها تغرق في الظلام الذي كانت تقطعه سيول من الخيوط والشباك البيضاء حتى خِلت

أنني فتحت بابا على غابة فورسترال، أنزلت الفستان بخفة بينا أغلق فمي وأنفي بيدي الأخرى وخرجت مسرعا.

نظّفت الفستان عند النافذة بعصا المكنسة ثم رفعته بيد واحدة وبقيت أنظر إليه لفترة طويلة، عجيب كيف نسيت الشيء الوحيد الذي لطالما آنس وحدتي ليلا في كل مرة كنت أحن فيها إلى شخص أكلمه بشكل عام و إلى المرأة بشكل خاص، كنت أستلقي على ظهري مثل ملعقة وآخذ في طرح الأسئلة والإجابة عنها بذات الصوت والنبرة، كنت فقط أقتطع وقتا بين كل سؤال مقيت وجواب لطيف لأخلق بعض الواقعية، وكأن المجيب قد فكر فيما سوف يقوله، واحد من الأسئلة المقيتة التي طرحتها على الفستان كان كالآتي :

- " هل فكرت في اسم محدد؟"

ومضت دقيقة كاملة قبل أن أجيب قائلا :

- " آدم..."

- " آدم! لماذا آدم؟"

- " لأنه يرمز إلى أول الشيء، إلى بدايته، و إلى أصله الأول... حينئذ يكون نقيا مثل سحابة صيف، أو عين طفلة، أو كذبة أم لم تعد حية... شيء يمكن

أن نسامحه بسهولة، بل لا يمكن أن نكرهه، مثل أبينا آدم، فلا أحد من البشر يكن له شيئا من الضغينة، رغم خطيئته، سأحب أن يحمل ولدي هذا الاسم حقا..."

وابتسم وجه الفستان كأجمل ما تكون ابتسامة الرضا، لكن في تلك الليلة لم نتحدث بعدها، لقد رضي كلانا بالاسم فنمنا ملئ جفوننا، كانت أياما جميلة بحيث كنت أنام وفي جيبي قطعة نقدية.

بعد خمسة أيام خرجت من شقتي في وضح النهار تماما، ربما بحلول العاشرة، وقد كنت لا أخرج إلا في الليل حتى لا يراني البخيل على تلك الحال، لكن في هذا اليوم قررت أن أذهب لرؤيتها، بما أن وجهي كان قد تحسن وعادت كل أضلاعي إلى مكانها.

ارتديت ثيابي الجافة بعدما غسلتها لأول مرة منذ شهر كامل وطويت الفستان ووضعته بداخل كيس بلاستيكي ورحت أنزل الأدراج مبتهجا بنعلي القديم الذي ظل يفرقع عليها حتى وقفت عند باب بيت البخيل في الأسفل، نظرت فلم يكن موجودا خلف مكتبه، حينئذ قلت في نفسي ربما يكون قد خرج للتسوق، أو لفعل أي شيء آخر، ولذلك ذهبت مباشرة نحو الباب وضربت ثلاث ضربات متتابعة.

- " مرحبا، كيف حالك؟"

- " مرحبا، بخير، وأنت؟"

كان وجهها شاحبا وملتصقا بعظمه، وكانت عيناها متعبتان من شيء ما، لكنها احتفظت بذات الابتسامة التي تشبه العملة الورقية، أعني مثل حقل ورد في نهار ربيعي مشمس، كانت تحشر رأسها بين الباب و إطارها بين تمسك طرفها بكلى يديها الناعمتان اللتان برز عظمهما.

أحب كونها لا تضع أظافر اصطناعية، ولا رموش طويلة، ولا أحمر شفاه ولا أي شيء لم يخلقه الله فيها، لطالما كانت إنسانة بسيطة مثل ورقة، لا شيء فيها معقد إلا ابتسامتها، وكنت قد تيبست لنصف دقيقة أراقبها قبل أن أقول وأنا أخفي الكيس خلف ظهري :

- " إنني مثل حصان كما ترين..."

- " ولكنك هزيل بعض الشيء عن آخر مرة رأيتك فيها".

- " أجل، هزيل مثل حصان تركه أصحابه في إسطبل مهجور كما ترين..."

- " آمل أنك لم تمرض أنت الآخر ."!!

- " لا،لا، أبدا... لكنني أتبع حمية، لقد علمت بأنك عدت فجئت لرؤيتك مباشرة، وأنا سعيد مثل نحلة لرؤيتك".

وانفرجت أساريرها بضحكة أربكتني وقالت بعدها.

- " لماذا قلت مثل نحلة؟"

- " لأن النسور لا تشرب من الورود كما ترين، كان بمقدوري قول أنني سعيد مثل حصان وحينئذ سيكون علي أن أتخيلك كقشة تبن وأنا لا أحب هذا، وكان بمقدوري أيضا قول أنني سعيد مثل غراب وحينئذ سيتوجب علي أن أراك قطعة نقود فضية، وأنا لا أحب هذا، إنني لا أحب إلا أن تكوني أنت، زهرة في شكل فتاة وفقط..."

- " ما زلت ظريفا كعادتك".

- " لا يمكن لأي شيء أن يجعلني أعبس عند رؤيتك، حتى لو قيل لي أنني سوف أموت بعد لحظة، أو جئتك وأنا فاقد لشقي الأيسر..."

لم أدري حينئذ ما كان الخطأ فيما قلته، لأنني رأيت ابتسامة مريم وقد خبت مثل نار قنديل في ليل عاصف وحل محلها عبوس وفتور في نظرتها.

- " هل أردت أمرا؟"

- ...

- " إنّ لدي ما أقوم به في الداخل، فاعذرني إن لم يكن لديك أي طلب ."!

- " هذه، هل بمقدورك أن..."

قلت ذلك بينما أُخرج الكيس من خلف ظهري أمامها بحرج بالغ، لكنها تناولته من يدي قبل أن أكمل حديثي، ثم إنها أغلقت الباب وكأنني ودعتها، ومازلت حتى اللحظة أذكر نظرتها إلى الكيس وهي تأخذه من يدي، كانت كأنما تأخذ قلب شخص عزيز عليها، ثم إنني بقيت واقفا عند الباب لساعة كاملة، دون أن أقوم بأي حركة، فكرت في أي شيء قد أخطأت، ربما اكتشفت بطريقة ما أنني كذبت بشأن معرفتي بيوم عودتها، لكن لا، لم يكن هذا هو السبب.

لم أغادر غرفتي ليومين بعد ذلك، كنت أستمر بالنوم ليلا ونهارا وكأن عنكبوتا ضخما أطبق أغصانه حول وجهي، حتى أنني لم أشعر بالجوع أبدا رغم أنني لم أتناول شيئا خلال تلك المدة، كان الأمر أشبه بأن تنتظر اتصالا من مديرك ليسأل عن حالك بعد أن غبت لأسبوع كامل بسبب المرض لكنه يخبرك بأنك مطرود من العمل، كان الأمر بهذا السوء أو أكثر بمائة مرة.

انتظرت طويلا لأراها بخير مرة أخرى، لكنها عادت وكرهتني في أول لحظة، ولم أعد أدري ما العمل، نظرت حينئذ من فوق الوسادة المتسخة، نحو

غرفة العناكب، وفكرت في أن أسرّع الأمر قليلا، لأنني تأكدت حينئذ أنه لم يعد لدي شيء أخسره.

قررت أن أخرج في ذلك اليوم لأنفق جزءا من الورقة النقدية التي أعطاني إياها الشيخ عبد العليم، وفي محل المواد الغذائية وقفت بينما أتنقل بين الرفوف عند مبرد الحليب فجأة، فتحته ونظرت إلى الداخل، كان مليئا بأكياس الحليب البيضاء المغرية، حاولت جاهدا أن أبعد صورتها وصوتها وموائها وعيناها الصافيتان مثل ثلج في زجاجة، أردت أن أحمل كيسا واحدا إلى المنزل، رغم أنه كان بمقدوري أن أشتري كمية بحيث لا يمكنني حملها، لكن حينما تكسرت دمعتي على أحد الأكياس في الأسفل فإنني عرفت ما ينبغي علي فعله بعد ذلك.

كانت تلك أول مرة أغادر فيها المحل دون أن أبتاع كيس حليب وأنا قادر على ذلك، لقد كان الشيء الوحيد الذي استطاع مجاراتي، ووحده من تنازل إلى مستوى قدرتي على تكاليف الحياة.

عندما عدت إلى النزل كان ثمة كيس معلق على مقبض باب شقتي، فأخذته مباشرة ودفعت الباب إلى الداخل، كنت أعرف مسبقا ما بداخله،

ولذلك فتحته وأنا أشعر بسوء بالغ، فلقد جاءت مريم بنفسها إلى هنالك وتركته وغادرت.

كان الفستان نظيفا مثل زهرة قرنفل، وكان عليه عطر جميل جدا، ليس بمقدوري حتى اللحظة تسمية العطور ولذلك لا أعرف أي عطر وضعته عليه بعد غسله، لكنني أذكر أنه كان بديعا جدا.

28

وثبت القطة من فوق السرير وجاءت تمشي فمرت بين قدماي نحو النافذة، تماما كما كانت تفعل وهي حية، إنها لم تتركني لحظة واحدة حتى رفعتها لأعلى كي تطل معي نحو الخارج، رأينا معا كل ما يمكن رؤيته في مدينة تضج بالبؤس والكآبة، وبأحلامي التي كانت تسير مريضة وعارية في كل شارع، أحدها كان يرغب في دخول قصابة الحي لكنّ أجزاء منه كانت تسقط كلما اقترب من واجهتها الزجاجية، مقل رجل رمل يتفتت. وآخر كان يأتي خلف طابور الصراف الآلي لكن بمجرد أن يتقدم الطابور فإنه يصيبه الشلل فلا يقدر على التحرك من مكانه، مثل عمود إنارة. وكان أحدها يأتي عند مدخل العيادة فيسقط على الأرض ليمر الناس من فوقه مثل فرشة قديمة، وآخرها كان يبحث في حاويات القمامة فلم يفشل ولو مرة واحدة في أن يستخرج كيسا بلاستيكيا تتقاطر منه سوائل كريهة الرائحة وما يلبث أن يلقي به على الأرض حتى يشرع في غمس يديه والبحث مرة آخر، لكنه في مرة أخرج شيئا مختلفا تماما، لقد أخرج قطة هزيلة خفيفة الوزن لا تكاد تفتح عينيها من شدة المرض.

نظرت حينئذ حيث كنت أضع يداي على إطار النافذة فلم أرى القطة، لقد وثَبَت نحو الأسفل وراحت تقطع الطريق نحو حاويات القمامة، وصلت عند القطة الأخرى التي كانت تشبهها وكانت مرمية بين الأكياس الكثيرة القذرة فاندمجت معها ووقفت من مرضها بصعوبة وراحت تبتعد عن المكان بخطوات عرجاء بطيئة.

نزلتُ على الأدراج بأقدام طويلة وثقيلة، وكأنني أجري بالعرض البطيء مثلما يحدث في الكوابيس تماما، وما كدت أصل إلى حاويات القمامة حتى أحسست بأن شرخا بطول شبر قد نبت في صدري، ركعت ألهث بينا أبحث عنها بعينيّ اللتان كانتا تتحركان بدهشة وتصدران صريرا مثل باب معدنية.

تبعت بعد ذلك مسارا رأيته ينبت على الأرض خطوة خطوة حتى قادني عند محل بيع الحيوانات، كان سعيد مشغولا في الداخل بأحد الزبائن، لكنني رأيت من خلال الزجاج شيئا بث الدم البارد في عنقي.

لم تمضي بعد ذلك إلا بضع دقائق وكنت أعود أدراجي منهارا تفوح مني روائح والحزن والانكسار، لقد رفضتني... القطة رفضت أن تعود معي، لقد عادت إلى الحياة، لا بل إنها كانت تنضح بالحياة أكثر مني، كانت تقف على المنضدة تراقب يدي سعيد وهما تخوضان في عد النقود باهتمام يفوق

اهتمامها بكل أنواع الأطعمة التي كانت حولها، أنا متأكد من أنها هي، رغم رفض سعيد لهذه الفكرة رفضا تاما، لأنه عندما خرج الزبون ودخلت خلفه رأتني القطة بعينيها الحيوانيتان فهربت مباشرة واختبأت عند قدميه مثلما أن كلبا دخل عليها.

سألت سعيد من أين حصل عليها فقال أن أحد الزبائن جاء وتركها عنده، وعندما جعلته يقسم على ذلك قال أنني لن آخذها حتى لو جئته بدفتر عائلي يثبت صلة الدم بيننا.

ولأحق الحق فإنني لم أكن على يقين تام من كونها هي، لأنها بدت جميلة جدا، نظيفة وممتلئة وذات شعر ناعم، تماما ككرة صوف صنعتها الجدة، الشيء الوحيد الذي ينطبق عليها هو لونها، حتى أنّ نظرتها تغيرت أيضا، طلبت من سعيد أن يرفعا مرة أخرى لأنظر إليها، لكنها امتنعت عن النظر إليّ، وراحت تطالع الفراغ عند قدميها لفترة قبل أن تثب إلى الخلف وتغيب في المخزن.

بمجرد أن دخلت شقتي انهرت على السرير مباشرة، فكرت كثيرا فيما حدث، وبدا لي أن كل السهام كانت تشير إلى نقطة واحدة، الوباء لا يذهب، والوضع يزداد سوءا في الخارج، ووصل بي الحال لأن أقبل صدقة من شيخ

المسجد دون أن يتوافق داخلي مع ما كنت أبديه أمامه من انعدام الرغبة في أخذها... صرت أخاف من أن أفقد إنسانيتي مرة أخرى مثلما حدث مع القطة، مريم لم تعد مريم التي أعرفها، إنها ساعة الصفر كما يبدو... قمت بعد ذلك مثل آلة فلففت قميصا حول وجهي ورحت نحو غرفة العناكب.

29

خرجت من غرفة العناكب بعد خمس ساعات من العمل المتواصل، كنت أشبه المومياء الفرعونية، فالشباك كانت تغلفني من كل جانب، من حسن حظي أن فتحت الصنبور فوجدت الماء يسيل في تلك اللحظة، أخذت حماما باردا دون أن استعمل ذرة صابون واحدة، لا لشيء إلا لأنني لا أمتلكه، جففت شعر رأسي بالوجه الداخلي للقميص الذي كنت أرتديه على وجهي للوقاية من الغبار وارتديت بعض الملابس القديمة والنظيفة وأخذت نعلي ونظرت في المرآة لثانيتين ثم خرجت نحو الأدراج بينا أجفف يداي على بطني.

- " مرحبا..."

- ... .

استمرت مريم تطالعني مثلما أنني جدار غبي يقف على ساق واحدة.

- " إنما أريد أن أعتذر عن أي شيء أحمق ربما يكون قد بدر مني دون أن أنتبه، لقد فكرت كثيرا، وأقسم أنني لم أصل إلى شيء حتى اللحظة".

- " لا عليك...." تحدثت أخيرا " بات واضحا أنك تعلم".

ومسحت يداي آخر مسحة على بطني حتى جفتا بالكامل.

- " ماذا؟، ما الذي لا أعلمه؟"

- " هل تريد أي شيء؟"

- " قلت أنني لا أعلم، ماذا تقصدين بهذا؟"

- " لقد فقدت والدي ."..!

استغرق مني الأمر دقيقة كاملة حتى أدركته، ثم رحت ألوي عنقي ببطء شديد نحو مكتب البخيل، تسمرت عيناي هنالك لبضع لحظات أخرى، لقد كان المكتب خاليا تماما حتى ليبدو جليا للناظر بأن صاحبه قد مات منذ فترة طويلة، وحينئذ عادت مريم تقول مرة لتخفف عني وطأة الخبر :

- " أدري أنك كنت تعلم".

وأجبتها مذهولا مثل الأول وكأنني أريد سماع ذلك مرة أخرى :

- " لا أعلم ماذا؟"

كنت أنظر بعينين واسعتين إلى مقعده الخاوي، لم أكن أُحس بأي شيء من حولي، كل ما كان يحدث كان في الداخل، إنها مثل الفرخ الصغير المملوء بالريش والقيء تلك الكلمة التي كانت على وشك أن تخرج من فمي، لم أكن أعرف!!، كنت أريد الاعتذار بهذه الطريقة، لكنني لم أستطع، ذلك الفرخ

المتسخ لم يستطع الخروج من فمي الضيق، فلقد أغلقته بزاوية مناسبة، كنت أعرف أنه إذا خرج فإنه سوف يموت من برد نظرتها.

- " لدي القليل من الوقت فقط، إذا أردت فتعال لنتحدث في الداخل ."!

واستدرت نحوها بالتثاقل ذاته.

- " هل تعرفين كيف يُغزل الصوف؟"

وقفت تنظر نحوي بصرامة بينا تكبح ابتسامة مقت طفت فجأة على حدود شفتيها.

- " لماذا تسأل الآن عن أمر كهذا؟"

ومثل فزّاعة قلبتها الريح نحو الجهة الأخرى، استدرت نحو الأدراج وانطلقت أصعدها راكضا.

عدت بعد دقيقة واحدة فوضعت أربعة أكياس كبيرة ممتلئة عند قدميها.

- " كم يلزمكِ من الوقت للانتهاء منها؟"

ونظرت إلى الأكياس تتفحصها ثم رفعت عينيها الحزينتين نحوي :

- " ما كل هذا؟"

- " أرجوك انظري جيدا إلى الأكياس، وأخبريني كم سيستغرق منك الأمر لإنهائها؟ هل لديك وقت لهذا؟"

قالت أنها لا تملك وقتا، وهي تعني بذلك أنها تملك كل الوقت، غير أنها لا تعرف كم سيستغرقها للانتهاء من الأكياس الأربع، كانت ترغب في أن نكمل حديثنا في الداخل، لكنني انصرفت من أمامها، ربما تصرفت معي بتهذيب مطلق، لكنه لم يكن أمرا يمكن تجاوزه بتلك السهولة، كنت أعي هذا، ولذلك هربت مثل كلب شارع، كيف لم ألحظ غياب والدها، فلم أره برفقتها عندما كانت تفرغ أغراضها من سيارة الأجرة، ثم أنني تحاشيت الظهور في النهار لبضعة أيام بعد ذلك بسبب الكدمات التي كانت على وجهي، ورحت أختلس الخروج في الليل عندما يغلق الجميع أبوابهم، لكنني عندما شفيت بعد ذلك ورحت أخرج في النهار مثل الأول ولم أكن أرى البخيل يجلس خلف مكتبه فإنني كنت أضع تفسيرات وأعذارا حمقاء وأصدقها، فالبخيل لا يخرج إلا نحو الأسواق في نهاية الأسبوع عندما تكون هنالك تخفيضات مناسبة.

فكرت في أنها سوف تدرك الأمر عاجلا أم آجلا، كنت متأكدا من ذلك، إن عدم انتباهي لغياب والدها لم يكن إلا بسبب كرهي الشديد لرؤيته، ولذلك كان عقلي لا يكابد نفسه مثقال ذره ليتساءل بجدية عن سبب غيابه عن مكتبه كل تلك الفترة.

يبدو أنها سامحتني بعد أول غضبة، لكنها حالما تدرك الأمر فإنّ الأمر سيغدو أسوأ بكثير من ذي قبل.

حالما عدت لأعلى ذهبت مباشرة نحو غرفة العناكب، أخذت دلوا ملأته بالماء حتى منتصفه ورحت أسقطها من على الجدران بنعلي واحدة تلوى الأخرى ثم أضعها في الدلو لتموت بداخله.

بحلول المساء كنت قد انتهيت من تنظيف الغرفة بالكامل، وعندما نظرت خلفي فقد كان ثمة سبعة أكياس أخرى صغيرة، واحد للعناكب الميتة، وواحد لما تبقى من الشباك العالقة، وأربعة للقمامة، لكنني أخرجتها بعد ذلك في جنح الظلام دفعة واحدة، وعند حاويات القمامة التقيت أحد الرفاق وكان يقتات في صحن مكسور عند الطرف، تذكرت حينئذ أنني كنت أحمل بعض النقود في جيب سروالي الممزق، مائتي دينار، ما يكفي لأعيش لعشرة أيام

كاملة، وهي كل ما تبقى من صدقة شيخ المسجد، لكنني أعطيتها لذلك الرفيق دفعة واحدة، ولقد أخذها وهو يتمتم، وقال بعد ذلك بنصف دقيقة:

- " يبدو أن وضعك قد تحسن، أيضا صار لديك قمامة لتخرجها..."

قلت:

- " أجل، فينبغي على الإنسان أن لا يظل فقيرا كما تعلم..."

- " لكن وجهك شاحب مثل حذاء قديم مهترئ، و إذا كان الشخص يملك نقودا فينبغي عليه أن يستعملها في تناول بعض السمك بدل أن يوزعها..."

- " هذا غريب حقا ."!!

- " لماذا؟"

- " ألا تحب أن يضع الناس نقودا في يدك، إنك تجلس هناك طوال الوقت سعيا لذلك؟"

- " أجل، لأنني أقاتل ضمن هذا الجانب، ولو كنت في فريقك لما فكرت في أن أتخلى عن أخس قطعة نقطية دون أي مقابل، فمن غير المعقول أن يناول جندي بعض رصاصاته لامرأة عجوز وجدها فجأة خائفة بداخل منزل حاول أن يحتمي بداخله..."

- " أجل معك حق، ولكن تقول أيضا أنهم حمقى، أعني..."

- " تماما، إنهم حمقى، حمقى ولا يتبولون على أنفسهم حينما يحل الشتاء، إذ لا يعجزهم شيء عن إيجاد مكان دافئ..."

- " أنت تدري أنك مجنون أليس كذلك؟"

- " أجل، لكن ليس بالقدر الذي يجعلني أنسى فضل ورقة نقدية جميلة كهذه..."

وهكذا تركته يكمل بحثه في الحاوية قبل أن يكتشف حجم إيماني بما كان يقوله.

في اليوم التالي كنت قد مللت من الانتظار ففكرت في شيء لأفعله، وقمت من السرير مسرع فنزلت الأدراج نحو باب مريم وطرقتها.

- " هل يمكنني أن أستعير منك كتيب الموسيقى؟"

- " لا، لكنك لا تملك بيانو، أم تريده أيضا؟"

قالت ذلك وهي تتبسم.

- " يكفي أن تعيريني الكتيب، أعدك أنني سوف أعيده لك غدا صباحا..."

- " ليس قبل أن تخبرني عن السبب ."!

- " حسنا، أنت تعزفين النوتات بطريقة لا يفهمها الآخرون، ولذلك فكرت في أن أعيد كتابتها بحيث تصير مفهومة... سوف أقوم بقلب النوتات فقط".

- " لكنني أحبها كما هي، ويهمني رأي الآخرين..."

- " لا يهمك رأي الآخرين أعرف، لكن هكذا سوف يصبح لديك معجبون كثر".

- " أنت لا تحب عزفي أليس كذلك، و إلا لما كنت تأتي لتصلح البيانو في كل مرة؟"

- " بلى..."

- " حسنا، لا يهمني أن يُعجَب الآخرون بعزفي ما دمت تفعل..."

- " أقدر ما قلته الآن، حتى لقد انغرس في رأسي بعمق مثل وتد وتثبت مكانه، ولكنني حقا أرغب في فعل هذا من أجلك، وأنا متأكد من أن رغبتي تفوق بأضعاف طيبة قلبك، وسوف أعود مهزوما منكسرا مثل صحن إن واصلت رفضك..."

- ...

- " أحضري قلما أيضا من فضلك "...!

وغابت بعد ذلك لدقيقتين ثم عادت وهي تحمل الكتيب وفوقه طبق من الفاصولياء الحمراء مع قطعة لحم صغيرة.

- " على ذكر الصحن، إنه لن يُذهب عنك هذا الشحوب، لكن أعدك أنه سوف يكون ألذ طبق فاصولياء تتذوقه في حياتك..."

أقسم أنها كانت تتبسم مثل أمي، رغم أنني لم أرى وجهها من قبل أبدا، لكن أعرف حتى في جنوني هذا الذي أنا فيه أنه لا يجوز للرجل الكبير أن يحب شيئا في الدنيا أكثر من ابتسامة أمه، ولذلك لم أجد وصفا أفضل من هذا لجمال وجهها في تلك اللحظة.

صعدت الأدراج مثل طفل فقير حافي القدمين حصل على أول كرة في حياته، وضعت الصحن على الأرض وطلعت على السرير وانهمكت في إعادة طبع النوتات تحت الأسطر الأصلية بقلم الرصاص وبخط واضح.

أعرف أنني كنت أبدو سعيدا في تلك اللحظة، لكنها كانت سعادة مزيفة ومؤقتة، لم أكن أريد الانتهاء منه بسرعة، ورغم ذلك بقيت لساعتين أدون على الكتاب دون أن أرفع رأسي عنه لحظة واحدة، لكن في لحظة شرود وقعت عيني على صحن الفاصولياء الذي كان قد ذهب بخاره.

كنت أجلس هنالك برفقة القطة بينا نغترف منه مثل طفلين يتيمين حصلا على وجبة دافئة، لكن تبخر المشهد في لحظة مفاجئة، حين تذكرت السيد

البخيل الذي لم يعد موجودا في هذا العالم، لقد رحل قبلي رغم أنه كان يملك كل ما يدعوا المرء للمكوث في هذا العالم لفترة طويلة.

30

- " أي شيء قد يدفعك لتكرهي شخصا لأجله؟"

- " الكذب".

- " هذا فقط؟"

- " أجل..."

- " ماذا إذن؟"

- " أن يستمر في الكذب..."

- " حسنا، إنه فستان أمي كما أخبرتك..."

- " وأنا أخبرتك أن تتوقف عن الكذب ."!

- " ربما لم تتمكن من ارتدائه مرات كثيرة، ولذلك مازال يبدو بحالة جيدة، لقد كان هدية من والدي بعد شهر واحد من زفافهما..."

- " توقف، أعرف أنك تكذب..."

- " لقد كان محفوظا بعناية..."

- " لا، لم يكن ."!

- " ماذا أفعل حتى تكرهيني إذن؟"

- " لا تكون الكذبة كذبة إذا لم يصدقها الشخص الآخر لأكثر من ساعة..."

- " لقد صنعته بنفسي..."

صمتت مريم طويلا بعد ذلك، ثم رأيتها تضحك.

- " ثمة حكاية وراء هذا، لكنني لن أتحدث عنها..."

- " بلى، سوف تخبرني عنها في وقت لاحق".

- " لا، لن أفعل..."

- " بلى، ستفعل".

- " لن يحدث هذا".

- " أين صنعته؟"

- " ففففي، فففففف... فففييي".

- " أين؟"

قلت بارتباك يصعب وصفه:

- " إنني أحبك مثل بغل كبير لا يعرف كيف يأكل العشب بملعقة خشبية"!.

وهكذا أغلقت الباب بقوة حتى كادت أن تكسرها في وجهي.

دار هذا الحديث بيننا في صباح اليوم التالي، بعدما أعدت لها الكتاب ومعه الفستان الذي أصلحته كهدية، لطالما اعتقدت أنه لا شيء يمكن أن يخدش قلب المرأة أكثر من أن يتقدم إليها شخص بمميزات ركيكة، شخص لا يشبه أحلامها في شيء ولا تطلعاتها، شخص من شأنه أن يشكل معها إن هي قبلت به، ثنائيا يشبه ثانية الحمار والإوزة.

أردت أن أغضبها بشدة، ولم أجد طريقة أكثر قسوة من هذه، أن أعترف لها بمشاعري نحوها، عندما عدت أصعد الأدراج لم أكن أعلم نتيجة ما فعلته، لأنها لم تبدي إشارة واضحة لما قلته، لكنها أخذت الفستان بيد واحدة ثم صفعت الباب وهي تنظر في وجهي بدم بارد.

قضيت مساء ذلك اليوم وأنا أراجع كل ما أملك، ولو كنت دونت كل ما أحصيته في ذلك الوقت على ورقة بيضاء لما استطعت أن أكمل ثلاثة أسطر، ربما ثلاثة قمصان وسروالان بهما ثقوب خفية ونعل واحد، لا بل وجدتني مدانا بأجرة كراء المنزل لمدة عام كامل لم أدفع خلاله دينارا واحدا للبخيل الذي كان مدفونا في الجبل، أتذكر الآن أنني تركت حذاء أو اثنين لدى الشركة التي كنت أعمل فيها، لكن من الجيد أني لم أمرغ أنفي هنالك لأكثر من ذلك، لربما أجد ما أحاسب به أحدا في اليوم الآخر، أليست سرقة حذاءين من فقير

مثلي من شأنها أن تسبب له ذات الضرر الذي قد يصيب رجلا غنيا سُرق من حسابه البنكي تسعة أصفار كاملة؟.

نمت في تلك الليلة في وقت متأخر، ولذلك لم أفق صباحا إلا على صوت طرق لطيف على باب الشقة، كان ينبغي عليّ أن أدرك بأنه ضرب ناتج عن يد امرأة، لكنّ أذناي لم تكونا قد فطنتا بعد تماما مثل عيناي وكل عضو آخر في جسدي، فتحت الباب متثاقلا و إذ بها مريم تنظر في وجهي.

بقيت متيبسا لدقيقة كاملة، فيما كانت مريم تتحدث، كنت منشغلا بتخيل شكلي في تلك اللحظة، ومحاولة فهم كمّ العيوب التي خرجت بها، بدءا من العمش المتراكم في عيناي والريق الأبيض المتيبس في شفتاي ثم إلى صدري المتعرق العاري، ولذلك فلم أسمع سوى كلمة واحدة، الشرطة... الآن بت أعرف ما قالته تماما، الشرطة في الأسفل، يريدون تفتيش غرفتك، ثم إنها وضعت كيسا منتفخا بين يداي وراحت تنزل الأدراج وهي حزينة.

بعد دقيقة واحد جاء شرطيان وطرحا عليّ بعض الأسئلة، وكنت أجيبهما من غير وعي مني.

- " لا، ربما، اثنان أو ثلاثة، لكنها ماتت بعد أسبوع واحد، منذ أكثر من عشرة أشهر، من؟ هل لا يزال حيّا؟، تقول أنها... ."

- " ينبغي أن نرى الغرفة الآن يا سيدي".

- " طبعا، تفضلا... سوف أبحث عن القابس، إنه هنا، تفضلا إلى الداخل..."

بعد دقيقة خرجا واضعين أيديهما على وجهيهما، ثم رفع أحدهما كيسا صغيرا شفافا وكان بداخله ثلاثة عناكب صغيرة ميتة مثل أولى قطرات المطر على التربة.

- " هذا يا سيدي سوف يكون دليل إدانتك، أنت متهم بتربية كائنات خطيرة وسط مجمع سكني بدون ترخيص مسبق، وهذا أمر مخالف للقانون، ومن شأنه أن يكلفك غرامة مالية، هذا إذا نجا الرجل من الموت، و إلا فسوف يذهب الأمر لأبعد من ذلك..."

أعترف بأنني لم أنظف الغرفة في ذلك اليوم جيدا، كما أنني لم أعد إليها مرة أخرى، لأن رائحتها كانت تشبه رائحة القبر المتعفن، لا أعرف حتى اللحظة هوية الشخص الذي لدغته العناكب، ولم أسأل سعيد إن كان هو من أخبر عني، لكن إذا كان هو الفاعل فحتما لديه كل الأعذار لذلك، فلقد نبهني مرارا، ولم يكن عليه أن يتحمل خطأ شخص آخر.

في ذات المساء وصلني إخطار من المحكمة بضرورة حضوري إليها بعد أسبوعين فقط، لأجل تسوية مخالفة التجول في الخارج وقت الحضر ليلا، كان قد مضى عليها أشهر، وكنت قد نسيت أمرها تماما، لكن في هذا البلد ثمة شيئان لا يتغافلان عن مواعديهما أبدا، ملك الموت والدولة عندما يتعلق الأمر بحاجياتها.

في الليل خرجت أتحامل على نفسي فنزلت الأدراج نحو مكتب السيد البخيل وجلست خلفه، أذكر أنني ضربت رأسي على الجدار حتى كاد دماغي ينفجر، لم أشعر بألم الضربة وسط كل الألم الذي كان ينتابني، عرفت فقط أنها كانت ضربة قوية من الصوت الذي صدر عنها، دخل آخر شخص إلى النزل بعد دقائق، فقمت وأغلقت البوابة وعدت إلى مكاني، لم يكن بمقدوري التفكير جيدا، لكنني سمعت صوت موسيقى جميلة تصدر من مكان قريب خلفي.

كانت مريم تعزف النوتات مثلما رسمتها، ولذلك صار وقعها صحيحا مفهوما للأذن، هدأت نفسي قليلا وأنا أسمع تلك الموسيقى، وبدا وكأن أجزاء دماغي كانت تعود لتنبض بالحياة مرة أخرى، وعرفت حينئذ أنه بمقدوري البكاء مثل غيمة ثقيلة.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، ثلاثة أيام قضيتها منغلقا على نفسي، لم أقابل فيها أحدا غير مريم التي جاءت فوضعت (الشيء) عند بابي قبل أن تغادر دون أن تسمع مني كلمة شكر واحدة، غادرت وهي حزينة، آه لا، إنها لم تحاول أن تتحدث معي أصلا، إنما قرعت الباب ثلاث مرات بكل الأدب الذي تحتويه يد فتاة لطيفة ثم تركت (الشيء) وذهبت وفي عينيها كل حزن رأته في حياتها.

31

عندما فرقعت شمس ذلك اليوم خلف الأفق وانطفأت واندفع الظلام عبر النافذة مثل الموج ولطخ الجدران والأبواب والفرش وأرجل السرير الصغيرة المختفية، كنت في تلك اللحظة أرقد على ظهري أطالع السقف منتشيا ومبتهجا ومتوهجا مثل نجمة، كانت تغمرني سعادة غير طبيعية، رغم ألم الجوع والوهن اللذان كانا يفتكان ببطني مثل الكماشات الحادة، أتذكر الآن هذا الأمر وبمقدوري القول أنني كنت ضعيفا بحيث شعرت بهواء الغرفة وهو يعصر أضلاعي نحو الداخل، تماما مثل قارورة بلاستيكية أدخلها طفل في دلو ماء فانكمشت بفعل الماء الذي حولها، لقد كنت أشعر بشيء مماثل، لكنه خُيّل إليّ بطريقة ما أنني كنت سعيدا جدا في تلك اللحظة، كنت أرى الهواء يتساقط مثل ندفات الثلج الحارقة فوق صدري، ولا ألبث أن أبتلع شيئا منه إلا وأجد في آخره لذة عجيبة تضطرني لمعاودة الكرة كل ثانيتين أو ثلاثة، لا أدري كم قضيت من الوقت وأنا أراقب الذباب وهو يطوف حول ضوء المصباح المعلق، شعرت أنني كنت أرقد بين نار حارقة وبرد شديد، وكان عليّ أن أميل إلى أحدهما لأتجنب الأخرى، ولذلك سقطت من فوق السرير مثل

وتد وقمت مستندا على يداي الضعيفتان لكن قدمي وقعت في صحن الفاصولياء بعد خطوة واحدة، ربما كانت أكثر وجبة أردت تناولها في حياتي، كان بمقدوري تناولها لأصحو لأسبوع آخر، لكن الوقت لم يكن مناسبا أبدا، كان الحضيض قد تلبسني مثل هالة سوداء غير مرئية.

وصلت إلى النافذة بصعوبة ووقفت عندها مثل مسمار مستقيم وظللت أنظر إلى الفراغ بعيدا.

كنت أؤمن أنه كان يوجد في هذا العالم، وفي مثل هذا الوقت تحديدا، مكان ما جميل وبارد يدور فيه هواء عليل وناعم، بحيث يصير ممتعا أن تتنفسه.

عرفت أن السماء أوسع بكثير من عيناي وبمراحل، لقد نظرت إليها في تلك اللحظة وعرفت ذلك.

والأرض أيضا.

شيء واحد لم أستطع رؤيته، شيء يكون أجمل من شفتي مريم وهما تتحدثان بطريقة عكسية.

آمنت بكل ما قاله الشيخ عبد العليم في تلك الليلة، لكن الوقت كان قد انتهى وأنا لم أسمع شارة الانطلاق أبدا.

عرفت أنه كان صوت مواء حقيقي أيضا، كان يأتي من نافذة سعيد مثل خيط دخان لينفذ إلى أذني.

بحثت عن نجمة توفيق لكنني لم أرها، عيناي كانتا ضعيفتان بذلك القدر المرعب.

تمنيت لو أرى غيوما تجلس هنالك معلقة بينا تراقبني بأعين تحمل حسرة، لكن لم تكن هنالك أي سحب في تلك السماء الأنانية، كان الفراغ يفرش أقدامه على مد البصر.

تخيلت شكل الجوع فكان صمتا أيقظه ضجيج الليل الذي أحدثته القطط في حاويات القمامة.

خرجت فكرة صغيرة في تربة رأسي وأرادت أن تنمو لدقيقة واحدة، لكن حذاء الجوع داس عليها بقسوة، وصاح فيها من أعلى فم الفقر بنتانة أسنانه وفضاعة شفاهه المتكسرة قائلا لا، لا تحاول يا جواد أن تعيش ليوم آخر.

بحثت عن المشردين فرأيت قطع فحم مبللة وباردة، باقي الأشياء كانت تلمع مثل الجواهر بشكل ملفت ومتفاوت.

عدت على أثري الذي تركته على أرضية الغرفة في شكل خطوط متقطعة من حساء الفاصولياء المتساقطة من قدمي، ووقفت أمام المرآة أنظر إلى أكثر شيء كرهته في حياتي، ربما... أو ربما لم أكرهه حقا، لكنني متأكد من أنني لم أحبه أبدا، الشيء الذي كنت أكرهه فعلا هو ظروفي التي عشت في ظلها، أما نفسي فلم أكن متأكدا حينها من رأيي فيها، الآن فقط أدركت هذا، ولم يستغرقني كثيرا لأفكر فيما سوف أخسره، لم أجد شيئا ذا قيمة أكبر من الأحلاس التي كنت أرتديها، حاولت أن أبكي لكنني لم أستطع، كنت أشعر أنّ قلبي صار أجوف من الداخل، تماما مثل علبة كرتون فارغة.

تمنيت لو كان بمقدوري أن أكسر تلك المرآة اللعينة، فلقد كانت أصدق شيء رأيته، كانت تعمل بشكل رائع، ولم تخطئ أبدا في إظهار حقيقتي لي ولو لمرة واحدة، ولذلك أردت كسرها كي لا أترك خلفي الشيء الذي كان يخالف تعاسة الأشياء الأخرى من حولي، لكنني كنت أضعف من أن أستطيع تكوين قبضتي.

كنت قد أعددت الغرفة منذ ساعتين، ولذلك ذهبت مباشرة نحو الدلو الذي وضعته في وسط الغرفة مباشرة فصعدت عليه مترنحا وأمسكت الحبل المصنوع من حرير العناكب بيديّ وأدخلت رأسي بداخله، ولم تمضي دقيقة واحدة حتى ركلت الدلو بعيدا نحو الجدار المقابل. ركلته بينما أبكي مثل عروس في ليلة زفافها.

32

"أن تموت خنقا فذلك يشبه
أن يحشر أحدهم جذع شجرة في حلقك"

33

كان الصوت على الباب يشبه تماما تلك الطرقات التي سمعتها قبل أن أستلم ذلك الحبل المصنوع من براز العناكب، ولذلك اضطربت واقفا مثل النابض، لم تكن لدي أدنى فكرة عن سبب قدومها، ولم أكن مستعدا لقول أي شيء أمامها، نظرت في المرآة مباشرة فرأيت آثار الحبل لا تزال موجودة حول عنقي لكن بشكل طفيف جدا، لكنني خرجت نحوها بعد أن ابتلعت كمية كبيرة من الريق بسبب الذعر الذي أصابني.

- " ينبغي أن نرحل من هنا".

- "سنرحل، أجل، إلي أين؟، لكن، نحن؟، أنا؟، من سيرحل؟"

كان هذا ما قالته مباشرة لحظة أن رأتني، ولم أجد بعد ذلك سوى أن أتلعثم في التفكير بتلك الطريقة.

- " سنرحل إلى الجبل، أنا وأنت، ألم تقل أنك لا تحبني؟، حسنا لم أخبرك أن عمتي توفيت أيضا، لقد فقدتهما معا خلال أسبوع واحد..."

كانت مريم تتحدث مثل وردة نكّس المطر رأسها لكن دون أن يقدر على أن يسلب منها جمالها، بدت حزينة وخائفة.

- " حسنا، اهدئي، لكن لماذا؟ لماذا نرحل؟"

- " ألا تريد أن تأتي معي؟"

حمقاء، كانت تبدو مثل الحمقاء تماما عندما قالت ذلك، لكنه بالتأكيد كان من نوعا من الدلال الخالص.

جلسنا معا بعد ذلك على حافة السرير الخاص بي لنكمل حديثنا.

- " ببساطة سوف نتزوج، ونذهب إلى الريف حيث مزرعة عمتي، وأظنك سوف تمانع في أن تعتني ببعض الأغنام والأبقار التي ترعى قريبا من المنزل أليس كذلك؟"

- " تقولين أنها ترعى قريبا من المنزل؟"

- " يوجد فرن مصنوع من الطين أيضا، خارج المنزل، حتى يكمن أن ألوح نحوك بيدي وأنا أطهو الخبز بداخله، بينا أنت تقف وسط الأغنام وتضع قباعة قش على رأسك، أليس هذا بديعا؟ يوجد جيران طيبون أيضا، كل واحد منهم يحمل ضغينة ضد الآخر، كما أن عددهم قليل جدا..."

- ...

- " هنالك أيضا لن أزعج الجيران بعزفي... أعرف أنّ عزفي جيد".

- " هل..."

- " لا،لا... إنني لا أشك لحظة واحدة في أنك تحب عزفي..."

- " لقد أحببت عزفك عندما كان معكوسا، وحتى بعدما صار صحيحا، أي أنني لا أحب عزفك بحد ذاته، بل أحب ما تفعلينه..."

- " أصدقك".

- " تقصدين كل ما قلته قبل لحظة؟"

- " ليس كل ما قلته..."

- " لكن... والدك، لم يكن يحبني".

- " والدي لم يكن يحب أحدا..."

تبعت ضحكتها بابتسامة مبتورة، لم أكن أصدق ما كانت تقوله، لا بل إنها هي من كانت تحاول إقناعي بالزواج منها، كان قد بقي شيء واحد لم تقله وكنت في انتظار سماعه، وأنا أيضا أحبك، لكنها لم تقل هذا، بل قالت شيئا أفضل بكثير منه وكان وقعه على نفسي مثلما أنّني صغرت بعشر سنوات كاملة، لقد قالت وهي تضع يديها في حجرها بخجل شديد جدا.

- " الآن سأطلب منك أمرا قبل أن أعرف ردك... لا تسألني عن رأيي فيك أبدا، يكفي أن لا توافق على الذهاب معي فقط، إلا إذا كنت تحب المدينة وتحب البقاء فيها".

وها هي مجددا راحت تتحدث بحماقة لذيذة، إنها كانت تسأل اللحم إن كان يحب أن يبقى بداخل الفرن لوقت أطول، كان قد مر يومان منذ أنقذتني القطة، وكان عقلي خلال تلك المدة يشبه أن كومة من الأسلاك السوداء والبيضاء ظلت تتصارع بداخله وتتشابك وتتداخل، لكن ظهور مريم في ذلك الصباح جعلها تهدأ وجعل حركتها أبطأ، وراحت تنسل من بعضها البعض وتعيد ترتيب نفسها، قالت بعد ذلك وهي تتابع القطة بعينيها الجميلتين اللتان تشبهان الفضة :

- " أرى أنها قد عادت، ربما لم تستطع الابتعاد عنك لفترة طويلة".

- " أجل... اعذريني لأنني أتعبتك في صنع ذلك الحبل فلا أظن أنني سأقوم باستعماله..."

- " لا بأس بذلك، لم يكن الأمر مسليا أبدا، لقد انشغلت بذلك الصوف بينما لم أكن أجد ما أفعله".

من المخجل قول هذا، كما أنه ليجعل قلبي يتعرق دما كلما عدت للتفكير فيه مرة أخرى، لكنني متأكد من أنني سوف أنساه يوما، لأن القطة معي الآن

ولسوف أجد طريقة لتعويضها، إنها تلعب الآن مع الغنم، الآن تحديدا بينا أجلس على مكتب صغير أمام النافذة لأكتب نهاية هذه القصة.

الآن يفترض أن هذا ما حصل، بعدما ألقيت القطة بداخل الحاوية في تلك الليلة، جاء أحد المتسولين ليقتات من القمامة وعثر عليها، ولأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن نجد بين الناس قلبا أحن على القطط من قلب متسول، فإنه قام بأخذها بين يديه وذهب بها إلى محل سعيد وجلس عند الباب ينتظر حلول الصباح، وعندما جاء سعيد ورآها على تلك الحال قال له.

- " إنها ميتة..."

وكان أن ردّ المتسول :

" - لكنها لا يمكن أن تكون ميتة أكثر مني أليس كذلك؟"

وحينئذ طلب منه سعيد أن يحملها إلى الداخل، أعتقد أنه قد شعر بتأنيب ضمير بعدما رفض أن يعالجها في المرة الأولى.

هذا يعني أن صوت المواء الذي سمعته قبل أن أحاول قتل نفسي كان حقيقيا جدا، لأنها جاءت بعد ذلك بلحظات وأنقذتني، كنت قد تركت الباب مفتوحا تحسبا حتى لا يقوم أحد بكسرها من أجل إخراج جثتي عندما تبدأ

الروائح الكريهة في الانبعاث منها، لكن القطة عبرت من ذلك الشق الصغير بسهولة.

أذكر أنني تلويت مثل رجل يتم شنقه، لا بل مثل رجل شنق نفسه، لأن الندم كان قد تمثل أمامي في تلك اللحظة مثل ظِل مارد كبير ظَل يضحك في وجهي بتشفي وبطريقة شيطانية مستفزة.

لقد تسلقت القطة جسدي مثلما تتسلق جذع شجرة، كانت تنشب أظافرها الحادة في ملابسي تحاول الصعود لأعلى، وحينما وقفت فوق رأسي بعد ذلك فإنها راحت تقطع حبل الحرير بأسنانها الصغيرة حتى تمكنت منه فسقط جسدي مثل كيس الرمل وسط أرضية الغرفة، وهكذا أحبطت القطة خطتي، الخطة التي قضيت عاما كاملا في الإعداد لها، وظننت أنني سوف أتفوق بها على كل أثرياء الدنيا، كانت طريقة للموت بحيث يفترض بها أن تكون أكثر طريقة تمتاز بالرفاهية للموت في هذا العالم، ظننتها ستكون السبيل السري للتفوق على الأغنياء الذي جهله الآخرون ووحدي أنا من عرفته.

- " أنظري، الموتى يحتاجون إلى شيء... شيء ما، ينير قبورهم أليس كذلك؟"

- " لا..."

- " حسنا، ثمة عائلة كاملة لكن ينقصها الأب فقط، والمسكن أيضا، والراتب، لقد عرفت ربّ تلك العائلة عندما أقلني في شاحنته التي يعمل فيها لصالح شركة صغيرة قبل فترة، والآن عرفت أنه رحل بغير رجعة، وعائلته لا تستطيع توفير ثمن إيجار المسكن بعده، وأنا قد فكرت قبل رحيلنا في أن أجعل زوجته وأطفاله يقيمون في الشقة التي كنت أقيم فيها، فهي في النهاية لم تكن تدر عليكم مالا لأنني لم أدفع منذ أشهر طويلة، وهكذا..."

- " لا تفعل ما تريده..."

- " ماذا؟"

- " أعني..."

- " لا، لا تحاولي تقويمها..."

- " لن يصبح هذا النزل ملكك، لذلك أفعل به ما تراه مناسبا..."

دائما ما أنظر في عيني مريم مثل الأبله، وهي تدرك ذلك، وأنا لا أفلح في تغيير نظرتي نحوها مهما حاولت أبدا، لكن عينيها هما الشيء الوحيد الذي

يذكرني بحجم الحماقة التي كنت على وشك ارتكابها، لذلك لم أستطع أطالة النظر فيها إلا بعد مضي فترة طويلة من زواجنا.

هنالك شيء آخر كدت أنساه أيضا، قبيل رحيلنا إلى الريف بيوم واحد التفت الشيخ عبد العليم بعد الانتهاء من صلاة العصر نحو المصلين كعادته، ورآني أجلس خلفه مباشرة، لم يُظهر أي ردة فعل واضحة، لكنه تظاهر بأن شيئا قد دخل في عينه، قمت بعد ذلك والدمع يتساقط من عيناي مثل المطر، كنت مغمورا بالسعادة حتى أخمص قدمي، شعرت وكأن الزهور كانت تنبت من جسدي، كنت مثل شجرة ورد تتحرك.

النهاية...

تمت بحمد الله.